السبل الموصلة

إلى مختصر فضائل

العلم وآدابه الجميلة

تأليف

أبي المنذر عمار بن عبد الجليل بن هزاع الوزني الحوباني

غفر الله له ولوالديه

دار الإمام الشافعي

للطباعة والنشر والتوزيع

اليمن - عدن

السُّبُلُ المُوصِلَة

إلى مُختَصَرِ فضائِل

العِلمِ وآدابِهِ الجميلة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

عدن ـ الشيخ عثمان جولة القاهرة ـ خلف فندق الريان
+٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤ – +٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢
عدن ـ الشيخ عثمان جولة القاهرة ـ خلف محطة النهدي
+٩٦٧٧٧٠٠١٢٥٢٢
حضرموت الحامي ـ جوار مسجد أنور ـ الشارع الشرقي من النادي
+٩٦٧ ٧٧٧٣٤٩٥٢٣ – +٩٦٧ ٠٥٣٤١٥٩٨
حضرموت سيئون شحوح ـ مقابل مسجد ابراهيم . ومدرسة شحوح للبنين
+٩٦٧٧٨٣٢٤٦٥١٣
alshafibooks@gmail.com

السُّبُلُ المُوصِلَةِ

إلى مُخْتَصَرِ فَضَائِلِ

العِلْمِ وَآدَابِهِ الجَمِيلَةِ

تأليف
أَبِي المُنْذِرِ عَمَّارِ بْنِ عَبْدِ الجَلِيلِ الحَوْبَانِي
غفر الله له ولوالديه

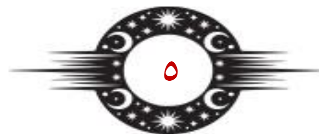
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي رفع منار العلم فسطع، وأعلى قدر أهله فارتفع، وجعلهم للناس أئمةً فاقتُدي بهم واتُّبع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل العلم حياةَ القلوب بعد جدبها، ونورَ البصائر بعد حجبها، وسببَ النجاة من ظلمات الجهل إذا أطبقت سحبها، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أعلم الخلق بربه، وأخشاهم له، وأقومهم بأمره، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين رحلوا في الآفاق لنشر ما تعلموه من رسول الله، ثم جاء من بعدهم فجابوا البلدان لتحصيل لباب العلم الصحيح، فغدوا سادة الدنيا وقادة العقول، وحملة الميراث النبوي في كل حولٍ وحول.

أما بعد:

فهذه صفحات أودعتها درر الفوائد، وزهرة الفرائد، في فضل طلب العلم وآدابه، والتحذير من آفاته وعوائده، جمعتها تذكرةً للناسي، وتنشيطًا للماسي، وتوجيهًا للسائر في مدارج الطلب، ليتدرج في معارج الفهم، ويطهر قلبه من أدواء الكبر والحسد والمراء، ويصبر على المشاق كما صبر الأوائل، ويرحل في سبيله كما رحل الأفاضل، حتى يكون من الموفَّقين الذين وعدهم الله برفع الدرجات، وإحلال البركات، وجعلهم مناراتٍ في الظلمات، وهداةً للسالكين في سائر الأوقات.



فإن العلم الشرعي هو النور الذي يضيء للإنسان طريقه، وهو ميراث النبوة، وسبب الهداية والفلاح، وبه يعرف العبد ربه ودينه، ويهتدي إلى سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

وقد حث الله ﷻ على العلم، ورفع أهله، فقال: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر:٩]، وجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ طلب العلم فريضة على كل مسلم، فقال: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»(١) [عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه ابن ماجه (٢٢٤)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)].

مناسبة كتابة هذه الرسالة المختصرة:

وكانت مناسبة كتابة هذه الرسالة أني كنتُ يومًا في المستشفى للعلاج، وبينما كنت في صالة الانتظار رأيت أن أستثمر ذلك الوقت الثمين، فخطرت في ذهني فكرة أن أكتب رسالة قصيرة وموجزة، حول العلم أذكر بها نفسي وأوجهها للعامة وطلاب العلم معًا، تكون تحفيزية رافعة للهمم، ومذكرة بفضل العلم، بأسلوب سهل يفهمه الجميع، مع الاستدلال بالآيات والأحاديث وكلام السلف، وباختصار وإيجاز وإشارة لما عداها من أدلة عسى أن تكون سببًا في إحياء حب العلم في القلوب، وفتح أبواب الخير للعمل به، ثم إني كتبت على جهازي الحاسوب اللابتوب وكنت أجد فتحا من الله في الكلام، ولم أرتب، وإنما ما خطر في

(١) لم أحقق هذه الأحاديث والآثار إسناديًا لكي لا يطول الكتاب، واكتفيت بالإحالة.



رأسي من باب كتبته وكتبت ما يناسبه من أدلة، ولم أتوسع، ثم إني لا أزال على الجمع حتى جاء بهذه الحلة التي لم آت بشيء جديد على ما كتبه علماؤنا فالمكتبة الإسلامية حافلة بكتب فضل العلم وآداب حملته، وما نحن إلا مغترفون من بحورهم وناهلون من معينهم .

راجيًا من الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: **أبو المنذر عمار بن عبد الجليل هزاع بن غالب الوريفي الحوباني**

دار الحديث السلفية في شحوح- سئيون- حضرموت.

بتأريخ ٢٦/ ربيع الأول/ لعام ١٤٤٧من الهجرة النبوية.



الفصل الأول: التمهيد:

المبحث الأول: تعريف العلم لغة واصطلاحًا:

أولًا: التعريف اللغوي:

العلم في اللغة هو: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، أي: معرفة تامة لا يداخلها شك، وهو ضد الجهل، ويُقال: عَلِمَ يَعْلَمُ عِلْمًا إذا أيقن وأدرك بحقيقة الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١].

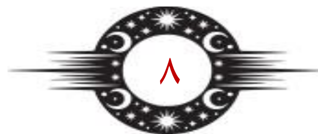
والعرب تفرّق بين العلم والظن، فالعلم يقين ثابت، والظن رجحان مع احتمال النقيض، والجهل عدم إدراك أو إدراك على غير وجهه.

ثانيًا: التعريف الاصطلاحي الشرعي:

العلم في اصطلاح الشرع هو: معرفة ما جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ معرفة يقينية، تشمل العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بدينه وشرعه، بفهم سلف الأمة.

وهذا التعريف جامع مانع:

- جامع لأنه يشمل جميع ما يجب على المسلم معرفته من أمور العقيدة والشريعة.
- مانع لأنه يخرج ما لا ينفع من العلوم التي لا تقرّب إلى الله.



أهمية هذا التعريف:

إن العلم في الإسلام ليس مجرد معلومات ذهنية أو حفظ نصوص، بل هو نور وهداية، يورث العمل والخشية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

المبحث الثاني: نبذة عن فضل العلم وأنه أساس كل خير:

إذا تكلمت عن الموت والدار الآخرة كان طلب العلم من أجل القربات الموصلة لجنة الله، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». [رواه مسلم (١٦٣١) ط: إحياء التراث].

فخير ما يبقى من عمله هو العلم الشرعي، الذي استفاده وأفاد به غيره، فَعَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ». [رواه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)].

وإذا تكلمت عن الخوف من الله لوجدت أهل العلم وطلابه هم أهل خشية الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ

لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج:٥٤].

وإذا تكلمت عن أحوال الناجين بين يدي الله تعالى كانوا حملة العلم العاملين به.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ومَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ». [رواه مسلم، برقم: (٢٦٩٩)].

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل:٢٧].

وإذا تكلمت عن الدعاء، وعلو الهمة في سؤال الله الخير لوجدت طلب العلم مع العمل به هو همة من يرجو استجابة الدعاء من الله فيه.

قال الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤].

وإذا تكلمت عن الفتن وما يحصل فيها من أزمات وخوف وعدم استقرار وأمن كان لطلب العلم بالغ الأثر في النجاة من ذلك كله.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء:٨٣].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣].

وإذا تكلمت عن الجهاد وفضله كان لطلب العلم بالغ الأهمية من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

وإذا ذكرت الفضائل والمقارنة بين الناس ومنازلهم في الفضل كان طلب العلم هو الفاصل في ذلك، وهو الميزان في تصنيف الناس من حيث الأفضلية.

فعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، وفي لفظ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». [رواه البخاري، برقم: (٥٠٢٧)، وبرقم: (٥٠٢٨)].

وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». [رواه الترمذي (٢٦٨٢) ط: مصطفى البابي، وابن

ماجه، (٢٢٣) ط: دار إحياء الكتب العربية، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنن ابن ماجه].

وقد جاء مختصرا بنحوه عن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما في صحيح الجامع: (٤٢١٢) ط: المكتب الإسلامي، **وقال العلامة الألباني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صحيح، وجاء عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما في صحيح الجامع أيضا (٤٢١٣).

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة:٣٣].

وقال الله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠].

وإذا ذكر أهل الرسوخ والرزانة، وأهل الإلهام والبصائر في إدراك حقائق الأمور في العقائد ومعرفة مراد الله من خلقه كان أصحابه هم حملة العلم.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧].

وقال الله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ [النساء:١٦٢].

وقال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

وإذا تكلمت في شأن الدنيا والزهد عن حطامها، والنصيحة للاهثين وراءها كان لأهل العلم وحملته الدور في إصلاح الناس في ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

وإذا ذكر أهل الفخر والهيبة في قلوب الناس والعظمة في نفوسهم كان العلم وحملته في مقدمتهم، وهو الميزان في ذلك.

قال الله تعالى عن إبراهيم وهو يحاجج أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم:٤٣].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة:١١].

وقال الله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر:٩].

وإذا ذكرت الهوى وذمه وذم أهله كان بسبب عدم عملهم بالعلم، مما يدل أن الأصل فيه النجاة والعصمة من الهوى، والغي، والضلال، والانحراف عن الحق والانتكاسة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وقال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾

[الجمعة:٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرعد:٣٧].

وقال الله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء:١١٥].

فيا أيها الناس، والله إن أساس كل خير وبه النجاة في الدنيا والآخرة لهو طلب العلم، فهو من أعظم وأقرب السبل الموصلة إلى الله، وإلى دار كرامته.

وفضائله كثيرة لا تكاد تحصر، وليس المراد سوقها هنا، وإنما هي نبذة، ومقدمة أردت أن أبيَّن فيها أن من أعظم نعم الله تعالى عليَّ هي الهداية للسُّنة، ثم لطلب العلم الشرعي، ولا زلت مواصلاً في طلبه باذلاً الأسباب في تحصيله، فالشكر لله الكريم العظيم أولا وآخرا ظاهرا وباطنا، وأسأل الله أن يثبتني على الكتاب والسنة حتى ألقاه، وأن يرزقني طلب العلم النافع، والعمل الصالح، والإخلاص، والجد والاجتهاد والمثابرة فيه.

وقد اتفق السلف والخلف على أن العلم هو أساس صلاح الفرد والمجتمع، وأن الأمة لا تنهض إلا إذا تمسكت بكتاب ربها وسنة نبيها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وفهمت دينها فهمًا صحيحًا على منهج السلف الصالح.

جاء في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٣٧):

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ شَرِيفٌ ... وَإِنْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لِئَامُ

وَلَـيْسَ يَـزَالُ يَرْفَعُـهُ إلَى أَنْ ... يُعَظِّـمَ قَـدْرَهُ الْقَـوْمُ
وَيَتَّبِعُونَـهُ فِي كُـلِّ أَمْـرٍ ... كَـرَاعِ الضَّـأْنِ تَتْبَعُـهُ السَّـوَامُ
وَيُحْمَـلُ قَوْلُـهُ فِي كُـلِّ أُفْـقٍ ... وَمَـنْ يَكُـنْ عَالِمًـا فَهُـوَ الْإِمَـامُ
فَلَـوْلَا الْعِلْـمُ مَـا سَـعِدَتْ نُفُـوسٌ ... وَلَا عُـرِفَ الْحَـلَالُ وَلَا الْحَـرَامُ
فَبِـالْعِلْمِ النَّجَـاةُ مِـنَ الْمَخَـازِي ... وَبِالْجَهْـلِ الْمَذَلَّـةُ وَالرَّغَـامُ
هُـوَ الْهَـادِي الـدَّلِيلُ إِلَى الْمَعَـالِي ... وَمِصْـبَاحٌ يُـضِيءُ بِـهِ الظَّـلَامُ. اهـ

المبحث الثالث: الدليل على أن العلم أصل العمل:

قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩].

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل؛ لأنه الأساس الذي تُبنى عليه الأعمال.

وقد بوّب **الإمام البخاري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه: باب العلم قبل القول والعمل، واستشهد بهذه الآية، **وقال الحافظ ابن حجر**: أي: أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يُعتد بشيء منهما إلا إذا كان موافقًا للعلم.

المبحث الرابع: حقيقة العلم الشرعي:

العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من شاء من عباده، به يعرف العبد ربه، ويهتدي إلى سبيله، ويعبد الله على بصيرة، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ ﴾ [يوسف:١٠٨].

ولهذا كان السلف يعدّون العلم حياة للقلوب، ودواءً للشبهات، وسراجًا في

ظلمات الجهل، حتى **قال الإمام أحمد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس.

المبحث الخامس: شرف العلم

١- اقتران شهادة العلماء بشهادة الله وملائكته:

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨].

٢- العلم ميراث الأنبياء:

عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**» [رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١١٤)].

٣- رفع درجات أهله:

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١].

٤- فضل العالم على العابد:

عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**» [رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، وصححه الألباني

في صحيح الترمذي (٢١٥٩)].

المبحث السادس: بعض أقوال السلف في فضل العلم

جاء في شعب الإيمان (٢/ ٢٧٩ ت زغلول): حباب بن موسى قال: عوتب ابن المبارك فيما يفرق المال في البلدان ولا يفعل في أهل بلده فقال: إني لأعرف مكان لهم فضل وصدق، وطلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث حاجة الناس إليهم شديدة، وقد احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أغنيناهم بثوا العلم لأمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ، فلا أعلم بعد النبوة درجة أفضل من بث العلم. اهـ

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة [آداب الشافعي ومناقبه (٩١)].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُٱللَّهُ: إنما يُطلب العلم ليُتقى الله به. [حلية الأولياء (٧/ ١٥)].

وجاء في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٢٣١):

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ أَرْفَعُ رُتْبَةً ... وَأَجَلُّ مُكْتَسَبٍ وَأَسْنَى مَفْخَرِ
فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْمُقْتَنِينَ لَهُ تَسُدْ ... إِنَّ السِّيَادَةَ تُقْتَنَى بِالدَّفْتَرِ
وَالْعَالِمُ الْمَدْعُوُّ حَبْرًا إِنَّمَا ... سَمَّاهُ بِاسْمِ الْحَبْرِ حَمْلُ الْمِحْبَرِ
وَبِضَمْرِ الْأَقْلَامِ يَبْلُغُ أَهْلُهَا ... مَا لَيْسَ يُبْلَغُ بِالْجِيَادِ الضُّمَّرِ. اهـ

المبحث السابع: أقسام العلم:

القسم الأول: فرض عين:

وهو ما يلزم كل مسلم تعلمه ولا يسعه جهله، مثل: معرفة أركان الإيمان الستة وأركان الإسلام الخمسة، أحكام الطهارة والصلاة والصيام، والزكاة والحج لمن وجب عليه، وأحكام المعاملات التي يباشرها المسلم في حياته اليومية.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» [رواه ابن ماجه (٢٢٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٤)].

قال أهل العلم: هذا الحديث محمول على علم الفرض الذي لا يُعذر أحد بجهله.

القسم الثاني: فرض كفاية:

وهو ما إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، مثل: التعمق في علوم الشريعة للفتيا والقضاء، وعلوم اللغة لخدمة النصوص الشرعية، الصناعات والحرف النافعة للأمة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَظٌّ مِنْ عِلْمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَظٍّ مِنْ عِبَادَةٍ، وَلَأَنْ أُعَافَى فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ، وَنَظَرْتُ فِي الْخَيْرِ

الَّذِي لَا شَرَّ فِيهِ فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْمُعَافَاةِ وَالشُّكْرِ. [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١١٧)].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تَذَاكُرُ الْعِلْمِ بَعْضَ لَيْلَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِحْيَائِهَا. [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١١٧)].

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَأَنْ أَجْلِسَ سَاعَةً فَأَفْقَهُ فِي دِينِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُحْيِيَ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ. [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١١٨)].

وقال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا عُبِدَ اللهُ بِمِثْلِ الْفِقْهِ. [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١١٩)].

وقال المعافى بن عمران رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدِيثٌ تَكْتُبُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيَامِكَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ. [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٠)].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعَالِمُ خَيْرٌ مِنَ الزَّاهِدِ فِي الدُّنْيَا الْمُجْتَهِدِ فِي الْعِبَادَةِ. [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٠)].

وقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ**». [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٠)].

وقال أبو هريرة وأبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ تَتَعَلَّمُهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَلْفِ رَكْعَةِ تَطَوُّعٍ، وَبَابٌ مِنَ الْعِلْمِ تُعَلِّمُهُ عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ مِائَةِ رَكْعَةِ تَطَوُّعٍ، وقالا: سمعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِذَا جَاءَ الْمَوْتُ طَالِبَ الْعِلْمِ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مَاتَ شَهِيدًا**». [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢١)].



الفصل الثاني: مراتب العلم

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في «الفوائد لابن القيم - ط عطاءات العلم» (١/ ١٥٣):

العِلْـمُ قـال الله قـال رسـولُهُ قـال الصَّـحابةُ لـيْسَ بالتَّمويـهِ
ما العِلْـمُ نَصْبَكَ للخِـلافِ سَـفاهةً بَـين الرَّسـولِ وبَـيْنَ رأي فَقيـهِ
كـلَّا ولا جَحْـدَ الصِّـفاتِ ونَفْيَهـا حَـذرًا مِـنَ التَّمْثيـلِ والتَّشْبيهِ.اهـ

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في [الرسالة (المقدمة/ ٧١)]: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في الفقه نبل مقداره، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. اهـ

المبحث الأول: تدرج طالب العلم:

طلب العلم عبادة جليلة، ومن تمام الحكمة في طلبه أن يسلك الطالب منهج التدرج، فيبدأ بالأهم فالمهم، وبما يحتاجه من أصول قبل الفروع، وبالمختصرات قبل المطوّلات، فإن العلم يُبنى بعضه فوق بعض، ومن رام القفز على المراتب ضاع عمره وتشتت فهمه.

ومن الأدلة على أن العلم بالتدرج:

قول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، أي: على تؤدة وترسل، فإنه أنزل مفرقًا شيئًا بعد شيء.

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ [الأنعام:٧].

وفي هذا إشارة إلى أن التلقي دفعة واحدة ليس هو السنة في التعليم، بل على مراحل.

ومن الأدلة ما جاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا. [رواه البخاري [٦٨] ومسلم (٢٨٢١)].

وعَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ شِهَابٍ، يَا يُونُسُ، لَا تُكَابِرِ الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأَيُّهَا أَخذْتَ فِيهِ قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً؛ فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ» اهـ من [جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٣١)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا، حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ. [رواه البخاري (٩٤)]، وفيه أن التكرار والتدرج في البيان من هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

المبحث الثاني: خطوات عملية للتدرج في طلب العلم

١ - الاهتمام بالقرآن أولًا:

القرآن هو النبع الأول، ومفتاح كل علم، ومنه تُستمد العقائد الصحيحة والأحكام الرشيدة والأخلاق الفاضلة، من جعله صدرَ طلبه، أشرق قلبه، واتسعت مداركه، وكان ما بعده تابعًا له ومبنيًا عليه.

تطبيق عملي:

- اجعل وِردًا يوميًا ثابتًا من الحفظ والمراجعة، مع تخصيص وقت لفهم المعاني والتدبر
- استخرج الفوائد العملية من الآيات، واعمل بها في حياتك اليومية.
- اجعل القرآن مرجعك الأول في التوجيه والتصحيح، بحيث يكون حَكَمًا على كل ما تتعلمه من العلوم الأخرى.

٢- البدء بالأصول قبل الفروع:

كما أن البناء لا يقوم إلا على أساس متين، فإن العلوم لا تُبنى إلا على أصولها، وأهم هذه الأصول: تصحيح العقيدة، وضبط القواعد الكلية التي تحكم الفروع، من قدّم الفروع على الأصول، ضلّ في الفهم، واضطرب في التطبيق.

تطبيق عملي:

- خصص بداية طلبك لتثبيت الأصول الكبرى التي يُبنى عليها سائر العلم، مثل معرفة التوحيد بأقسامه، ومعرفة القواعد العامة لفهم النصوص، وضبط أركان الإيمان.
- اجعل هدفك في هذه المرحلة الفهم العميق، لا جمع المعلومات، مع ربط كل أصل بدليله من الكتاب والسنة.
- لا تنتقل إلى التوسع في الجزئيات حتى تتأكد أنك تمتلك أساسًا لا يتزعزع أمام الشبهات.

٣- المتون الصغيرة قبل الكبيرة:

العقل يحتاج إلى تغذية متدرجة، فكما لا يُعطى الصبي طعام الكبار دفعة واحدة، لا يُعطى طالب العلم المتون الكبار قبل أن يتدرج في الصغار، المختصرات ترسم له صورة العلم، ثم تأتي الموسعات لتفصيله وتكميله.

تطبيق عملي:

- ابدأ بالنصوص الموجزة التي تعطيك صورة عامة للعلم، ثم زد حجم المعلومات والتفاصيل تدريجيًا.
- بعد إتقان المختصرات، أعد دراستها في صورة أوسع مع شروح متوسطة، ثم بعد ذلك انتقل إلى التوسع الشامل.
- لا تهجر ما بدأت به، بل اجعل منه أساس مراجعتك الدائمة حتى وأنت في مراحل متقدمة.

٤- التدرج في الحفظ والفهم:

الحفظ وحده يورث الجفاف، والفهم وحده يورث النسيان، والموفق من جمع بينهما على وجه متدرج.

تطبيق عملي:

- ابدأ بحفظ مقدار يسير مما تدرسه، مع شرح معانيه وفهم مراميه.
- لا تستعجل حفظ كميات كبيرة بلا فهم، فإن الحفظ الخالي من المعنى سريع الزوال.

- خصص أيامًا للمراجعة الدورية، بحيث يبقى ما حفظته راسخًا في قلبك.

٥- العمل بما تعلم قبل الزيادة:

العلم في أصله عبادة، والعبادة لا تُقبل إلا بالعمل، ومن عجائب الشريعة أن البركة في العلم تأتي من تطبيقه لا من مجرد تحصيله.

تطبيق عملي:

- اجعل كل ما تتعلمه قابلًا للتطبيق في حياتك، سواء في عباداتك أو معاملاتك أو أخلاقك.
- استحضر هدي الصحابة الذين كانوا لا ينتقلون من مقدار من العلم حتى يطبقوه قولًا وعملًا.
- قِس نجاحك في الطلب بمقدار ما تغير في سلوكك وعبادتك، لا بعدد الصفحات التي قرأتها أو المحاضرات التي سمعتها.

كلمة جامعة: التدرج في طلب العلم ليس ترفًا علميًا، بل هو منهج شرعي تربوي، سار عليه الأنبياء والرسل، وورثه العلماء، وبه يُبنى الفهم المتين، وتزكو النفس، ويثبت العلم في القلب، والعجلة في الطلب، أو القفز على المراحل، كمن أراد بناء قصر على أرض رخوة؛ ما أسرع ما ينهار.

المبحث الثالث: فوائد التدرج في طلب العلم

١) رسوخ الفهم وقوة الحفظ:

العقل إذا أُعطي العلم شيئًا فشيئًا تمكَّن من إدراكه، فصار الفهم أرسخ، والحفظ

أبقى، كما تُرسَّخ الجذور في الأرض شيئًا فشيئًا حتى تعلو الشجرة وتثمر.

٢) السلامة من التشويش الذهني:

التدرج يحفظ الذهن من التشتت بين مسائل كثيرة قبل فهم أصولها، فيبقى الفكر صافياً، والنظر مستقيًما، بخلاف من جمع في صدره معلومات متفرقة بلا نظام، فتداخلت عليه وتناقضت.

٣) الثبات على طريق الطلب دون ملل أو انقطاع:

الطالب الذي يسير بخطوات محسوبة لا يرهق نفسه، فيبقى نشاطه مستمرًا، وعزيمته متقدة، على عكس من يُحمل نفسه فوق طاقتها فيملّ وينقطع.

٤) سهولة التطبيق العملي لما يتعلمه:

من أخذ العلم على مهل، عرف كيف يترجمه إلى واقع، فطبّق أحكامه، وظهرت آثاره في سلوكه، أما المستعجل فغالبًا ما يبقى علمه حبيس الأوراق، لا يرى النور في العمل.

الخلاصة: التدرج في طلب العلم سنة ربانية أشار إليها القرآن في تنزله منجّما، وهدي نبوي في تعليم الصحابة، ومنهج سلفي أصيل سار عليه الأئمة الكبار، وهو سبيل الموفقين من طلاب الحق، ومن تدرج في طلبه صعد الدرجات بثبات، وجنى ثمرة العلم يانعة ناضجة، وأما من استعجل قطف الثمر قبل نضجه، فاته الثمر كله، وربما أفسد الشجرة.



الفصل الثالث: مقومات طلب العلم وأسباب تحصيله

المبحث الأول: الإخلاص في طلب العلم

وجوب الإخلاص:

الإخلاص شرط في قبول العمل، وهو تصفية النية من شوائب الرياء والسمعة، وإرادة وجه الله تعالى وحده.

فالإخلاص هو روح الأعمال، وميزان القبول، فمن طلب العلم لغير الله كان علمه وبالًا عليه، ومن أخلص لله رفعه العلم وبلّغه منازل الصالحين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال بعض السلف: كنا نطلب العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله [حلية الأولياء (٩/ ٢٣٦)]، أي: أن بركة العلم قادتهم إلى الإخلاص.

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما يُطلب العلم ليُتقى الله به. [جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢٣١)].

فالإخلاص في الطلب نورٌ على نور، وسبب لبركة الوقت، وصفاء الذهن، وتيسير الفهم، ومن أخلص لله رفعه فوق أقرانه، وألقى محبته في قلوب الخلق، وكتب له القبول في الأرض.

والإخلاص هو أصل القبول، وركن صحة العمل، وبه تسمو النيات، وتزكو المقاصد، وتثمر الأعمال، والعلم من أشرف العبادات، فلا يقبل إلا إذا كان

خالصًا لوجه الله تعالى، فإن دخله رياء أو سمعة كان وبالًا على صاحبه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر: ٢].

وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣].

فهذه الآيات أصل في وجوب إخلاص النية لله في كل عبادة، والعلم من أجلّها.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» [رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)].

وعن كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ» [رواه الترمذي (٢٦٥٤) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود].

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي، إنها تتقلب عليّ. [جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٤)].

وقال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. [جامع العلوم والحكم لابن رجب (١٩)].

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إني أجد الحديث يقع في قلبي فأمنعه مخافة أن يكون لله. [الزهد لأحمد بن حنبل (٣/ ١٥٥)].

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية. [الزهد لأحمد (١/ ١٨٥)].

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: طلب الحديث ثلاثة: طلبه لله، وطلبه للدنيا، وطلبه للمراء والجدال، فأما الذي لله فيبقى، وأما الذي للدنيا فيذهب، وأما الذي للمراء والجدال فهو وبال على صاحبه. [جامع بيان العلم (١/ ٩٦)].

وقال أبو يوسف القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم نية، فإن صحت النية نفع العلم، وإن فسدت النية لم ينفع العلم. [الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٨٣)].

ومن آثار الإخلاص في طلب العلم:

- يورث بركة الوقت وصفاء الذهن.
- يفتح للعبد أبواب الفهم والحكمة.
- يرفع قدر صاحبه في الدنيا والآخرة.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» [رواه البخاري (١) ومسلم

[(١٩٠٧)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العمل بلا إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه. [الفوائد (٤٨)].

خطر الرياء:

الرياء داء دفين، ومرض خفيّ، يتسلل إلى القلوب فيفسد العمل كما تسري النار في الهشيم، ويأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. هو شرك خفيّ لا يميّزه إلا من أبصره الله بنور البصيرة، يُلبس العمل ثوبًا من النقاء في أعين الناس، بينما حقيقته عند الله غبار تذروه الرياح.

المرائي عبدٌ لعيون الناس، يلهث وراء ثنائهم، ويتزين بمدحهم، ويستوحش من ذمهم، فبدل أن يسعى لمرضاة رب العالمين، أصبح أسيرًا لنظرات المخلوقين. كم من عاملٍ ظن أنه يرتقي بعمله، فإذا به يهوي به إلى درك النفاق؛ وكم من عالم أو عابد ظن أنه على قمة الطاعة، فإذا به يسقط في هاوية الشرك الأصغر، لأنه باع إخلاصه بعرض فانٍ من الدنيا.

الرياء لا يترك لصاحبه إلا الخسران، فإنه يعمل ويكدح، ثم إذا جاء يوم القيامة قيل له: خذ أجرك ممن كنت تعمل له! فيرجع بالخيبة والحسرة، ويتمنى أن لو كان مجهولًا في الدنيا ليكون مقبولًا عند الله في الآخرة.

وقد كان السلف يخافون الرياء كما يخافون الشرك الأكبر، ويجاهدون أنفسهم على إخفاء العمل كما يجاهد الرجل على إخفاء المعصية، وكانوا يعدّون حب الثناء

آفة تهلك القلوب، **ويقولون**: من طلب بعمله وجه الناس، فقد خسر وجه الله.

والرياء: هو طلب المنزلة في قلوب الناس بعبادة الله، وهو شرك أصغر.

عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ**» [رواه أحمد (٢٣٦٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٥)].

وجاء عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ يَا فُلَانُ: مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟، فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**» [رواه مسلم (٢٩٩٢)].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ**» [رواه مسلم (٢٩٨٨)، وجاء بنحوه عن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» [رواه مسلم (٢٩٨٨)].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ**» [رواه أحمد في

مسنده (٧٠٤٥)، وصححه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٤٠)].

علامات الإخلاص في طلب العلم:

❁ كراهة الظهور إلا لنفع شرعي:

المخلص يفر من الشهرة كما يفر السليم من الأسد، ولا يظهر إلا إذا كان في ظهوره إحياءٌ لسنة أو نفعٌ للناس، مستحضرًا أن القلوب بيد الله، وأن الثناء لا ينفع ولا يضر إلا بإذنه.

❁ العمل بالعلم وتعليمه ابتغاء وجه الله:

فالعلم عبادة، وتمام العبادة بالعمل بها، ونفع الخلق بها، لا بطلب المدح أو تحصيل الجاه، وقد **كان السلف يقولون**: كنا نتعلم العلم لننفع به أنفسنا والناس.

❁ الصبر على الأذى في سبيل نشره:

المخلص يعلم أن طريق الدعوة والتعليم محفوف بالأذى، لكنه يصبر ابتغاء مرضاة الله، مستحضرًا قول الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل:١٢٧].

❁ ترك المجادلة والمراء لغير فائدة:

المخلص يزن كلماته بميزان الشرع، فلا يدخل في جدال لا يثمر علمًا ولا يقرب إلى الحق، ملتزمًا بقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**» [رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن

أبي داود].

الخلاصة: الإخلاص في الطلب هو روح العلم، وبدونه يكون الجهد هباءً، والعمل سرابًا، وعلامته أن يطلب العبد العلم لله، ويعمل به لله، ويعلّمه لله، فيكون همّه وجه ربه لا وجوه الناس، ورضاه لا رضا الخلق، ويصبر في سبيله، ويجتنب ما يفسده من رياء أو جدال عقيم، فيتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

وسائل تعين على الإخلاص:

❖ كثرة تذكر الآخرة وأهوالها:

من عاش قلبه حاضرًا بين يدي الآخرة، هانت عليه الدنيا وزخارفها، وسهل عليه أن يطلب العلم لله لا لغيره، فذكر القبر والحساب والميزان والصراط يجعل العمل خالصًا لوجه الله، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات:٥٥].

❖ قراءة سير المخلصين من العلماء:

سير السلف الصالح مرايا تعكس الإخلاص في أبهى صوره، فهم قدوة في إخفاء أعمالهم، والصبر على طلب العلم وتعليمه بلا طلب دنيا، مطالعة أخبارهم تحيي في القلب الهمّة، وتزرع فيه حب الإخفاء وترك الرياء.

الدعاء بالسلامة من الرياء:

الإخلاص نعمة من الله، والدعاء مفتاح تحصيلها، وقد حذّر النبي ﷺ من الشرك الخفي، وعلّم أصحابه دعاءً جامعًا، فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ». فَقَالَ لَهُ: مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ، وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ». [رواه أحمد في مسنده (١٩١٠٨) وحسنه لغيره الإمام الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٢١)].

محاسبة النفس عند بداية كل عمل وأثنائه وبعده:

المخلص يفتش قلبه قبل العمل: لماذا أفعل هذا؟ وأثناءه: هل لا زال لله؟ وبعده: هل بقي خالصًا أم شابه ما يفسده؟ وهذه المحاسبة المستمرة تحرس النية من الانحراف، وترد القلب إلى الطريق الصحيح إذا زاغ.

الخلاصة: أن الإخلاص زاد طالب العلم، ووسائله كالماء للشجرة، إذا انقطع جفّت، وإذا تواصل أينعت، ومن أكثر من ذكر الآخرة، وتأسّى بالمخلصين، وأكثر الدعاء، وحاسب نفسه، كان أرجى أن يحيا قلبه بالنية الصالحة، وأن ينجو من سموم الرياء الخفي.

المبحث الثاني: وجوب العمل بالعلم

العلم في حقيقته ليس أوراقًا تُقلب، ولا محفوظاتٍ تُتلى، وإنما هو نورٌ يقذفه الله في القلب، فيقود صاحبه إلى مرضاته، ويكفه عن معاصيه، فمن جعله سلّمًا للجدال أو طلب الدنيا، أو تركه حبيس الذهن دون أثر في الجوارح فقد بدّل النعمة نقمة، وقرّب نفسه من سخط الله.

إن الله جَلَّجَلَالُهُ حين أمر بالعلم، قرنه بالعمل، وجعل الغاية من المعرفة إقامة العبودية على بصيرة، فقال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، فالعلم هنا لم يكن وقوفًا عند (اعلم)، بل أعقبه العمل والاستغفار.

والذين يعلمون ثم لا يعملون، قد ضرب الله لهم مثلًا مهينًا، فقال :﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة:٥]، فهو يحمل أثقال العلم بلا فهم ولا تطبيق، فلا ينتفع بما يحمل، بل يزداد عناءً فوق عناء.

وفي السنة يكفي أن يتذكر العاقل ما رآه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ ليلة الإسراء: رجال تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، لأنهم كانوا يعلّمون ولا يعملون، ويأمرون ولا يمتثلون، وهل هناك عقوبة أشد من أن يكون العلم الذي ترفعت به بين الناس، هو السوط الذي يُلهب ظهرك يوم القيامة؟

ولذلك كان السلف يفرّون من القول بلا فعل، ويخشون أن تكون كلماتهم حجةً عليهم، حتى **قال الحسن البصري** رَحِمَهُٱللَّهُ: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما عنده، وزهد فيما سواه.

وكانوا يرون أن العلم بلا عمل كالسحاب بلا مطر، يراه الناس فيُعجبون به، ثم لا يرزقهم قطرةً واحدة.

فليحذر طالب العلم أن يكون كمن جمع الحطب ثم أشعل فيه النار بيده، فإن علم بلا عمل يورث قسوة القلب، ويجرّ إلى الرياء، وربما يُحرم صاحبه بركة ما علم، فينساه أو يلتبس عليه.

وقد قال بعضهم: إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد به شرًا أغلق عنه باب العمل، وفتح له باب الجدل.

وصية جامعة: يا طالب العلم، إن كنت تريد أن يرفعك الله درجات، فاجعل ما تعلمته ميراثًا في سلوكك قبل أن يكون في أوراقك، وطبّق ما قرأته في أفعالك قبل أن تشرحه بلسانك.

واعلم أن العلم الذي لا يقودك إلى طاعة إنما هو شاهدٌ عليك يوم القيامة، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**» [رواه مسلم (٢٢٣)].

فابدأ بنفسك، فطهّر قلبك، وأصلح سريرتك، وكن أول العاملين بما تعلمت، لتكون من الموفقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد:١٧].

المبحث الثالث: العمل بالنصيحة والانتفاع بالعلم

العلم نورٌ يهدي إلى العمل، والنصيحة ثمرة العلم وواجبه، فلا كمال لعلم بلا عمل، ولا تمام لأمانة بلا نصيحة، ومن أدب طالب العلم أن يكون أول العاملين بما تعلّم، ثم يبلغ الخير لإخوانه ناصحًا أمينًا، لا يطلب من وراء ذلك رياءً ولا سمعة، بل وجه الله وحده.

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». [رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢)].

فالحديث بيّن أن الناس مع العلم على ثلاثة أصناف: من انتفع به فنفع، ومن انتفع به وحده، ومن لم يقبل أصلاً، فالموفَّق هو الذي يعمل ويُعلِّم وينصح، فيجمع بين الهداية لنفسه والهداية لغيره.

وعن تميم الداري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَة» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ».

[رواه مسلم (٥٥)].

وهذا أصل في أن الدين كلّه مبني على النصيحة، فهي واجبة للخاص والعام، ولها صور كثيرة: نصح الشيخ لطلابه، ونصح الطالب لإخوانه، ونصح المسلمين بعضهم لبعض، بإخلاص ورحمة لا بغلظة ولا رياء.

قال بعض السلف: ما بالُ أقوامٍ يطلبون العلم ولا يعملون به؟! إنما العلم شرفه بالعمل، فمن لم يعمل لم ينتفع.

فالنصيحة ثمرة العلم، والعمل شاهد صدق عليه، ومن تعلم وترك العمل أو قصر في النصيحة كان كالوعاء المخروم، لا يمسك ماءً ولا يروي غيره.

المبحث الرابع: ثمرات العمل بالعلم

العمل بالعلم تاج فوق رأس العالم، وزينة لطالب العلم، وبه يكتمل شرف المعرفة، وتتحول المعلومات إلى حياة في القلوب وسلوك في الواقع، ومن حُرم العمل بعلمه، فكأنما حُرم ثمر الشجرة بعد طول سقيها، فبقيت أوراقها بلا طعم ولا غذاء.

١) قبول القول وانتفاع الناس:

إذا رأى الناس العالم عاملًا بما يعلم، صدقوه، وأخذوا عنه، وسرت هيبته في قلوبهم، فصار قوله مسموعًا، ونصحه مقبولًا، قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٣﴾ [الصف:٣]، فكيف بمن يطابق قوله فعله، ويصدّق لسانه عمله؟

٢) البركة في العمر والعلم:

العمل الصالح يفتح للعبد أبواب الفهم والحكمة، ويزيده الله به نورًا على نور، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد:١٧]. فالعالم الذي يعمل بما يعلم، يجد في وقته بركة، وفي علمه نماء، وفي قلبه سكينة.

٣) النجاة من الفتن:

العمل بالعلم حصن منيع أمام تيارات الباطل وشبهات الفتن، فمن اعتصم بما علم وعمل به، عصمه الله من الانزلاق إلى الضلال، وثبّته على الصراط المستقيم.

٤) رفعة الدرجات في الدنيا والآخرة:

قال تعالى :﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١١]، فالعلم وحده لا يرفع، وإنما يرفع إذا اقترن بالإيمان والعمل الصالح.

٥) النجاة في الموقف العظيم يوم القيامة:

عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ» [رواه الترمذي (٢٤١٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي] فالسؤال عن العلم ليس عما حُفظ فقط، بل عما عُمل به.

٦) صلاح القلب والجوارح:

العلم الذي يُعمل به يزكّي النفس ويهذّب السلوك، ويجعل القلب حيًّا عامرًا بذكر الله، والجوارح مسارعة في الطاعات.

٧) نشر القدوة الحسنة:

العالم العامل قدوة تُرى قبل أن تُسمع، فإذا وعظ الناس سبقهم بفعله، فأصبح كلامه مؤثرًا، وسلوكه مدرسة قائمة.

٨) نيل محبة الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم:٩٦]، والعمل الصالح ثمرة العلم الصادق، وبه يفيض الله على عبده محبته، ويزرع له المحبة في قلوب عباده.

الخلاصة: العمل بالعلم مفتاح القبول والرفعة، وهو الطريق لبركة العمر، وحصانة القلب، ومحبة الله وعباده، فمن رزقه الله علمًا فليجتهد أن يزينه بالعمل، فإن ترك ذلك ضاع علمه، وخسر في دنياه وآخرته، كما قيل:

يهتف العلم بالعمل ... فإن أجابه وإلا ارتحل.

المبحث الخامس: الوسائل التي تعين على العمل بالعلم

العمل بالعلم توفيق من الله، ومن أراد أن يحافظ على هذا التوفيق، فعليه أن يأخذ بالأسباب التي تُثبّت قلبه، وتعينه على ترجمة ما تعلمه إلى واقعٍ حيّ في سلوكه، ومن أعظم هذه الوسائل:

١- الإكثار من الدعاء بالثبات والتوفيق للعمل:

فالدعاء مفتاح كل خير، وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه العلم النافع والعمل الصالح، ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**» [رواه ابن ماجه (٩٢٥) وصححه الألباني، في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه].

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُكثر أن يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، فلما سأله أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أوَ تخاف علينا يا رسول الله؟ قال: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**» [رواه الترمذي (٢١٤٠) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي].

٢- مجالسة الصالحين العاملين:

فمجالسة من يترجمون علمهم إلى عمل تُحيي القلب، وتبعث الهمّة، وتذكّر بالآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف:٢٨]، فمجالسة هؤلاء تقي من الغفلة وتعين على الثبات.

٣- تذكر العقوبة المترتبة على ترك العمل بالعلم:

من أعظم ما يزجر النفس عن التقصير أن يتذكر العبد الوعيد الشديد، فقد أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن أول من تُسعّر بهم النار يوم القيامة «**وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ**

عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ» [رواه مسلم (١٩٠٥)].

٤- محاسبة النفس على التقصير:

العاقل يزن نفسه بميزان الشرع، قبل أن توزن أعمالُه يوم القيامة، فيسألها: هل عملت بما علمت؟ هل طبّقت ما فهمت؟ وهذه المحاسبة تردّ النفس إلى الصواب إذا زاغت، وتدفعها إلى الاجتهاد إذا فترت.

الخلاصة: العمل بالعلم لا يُحفظ إلا بدعاء صادق، وصحبة صالحة، وتذكر شديد للعاقبة، ومحاسبة مستمرة للنفس، فمن واظب على هذه الوسائل، عاش علمه حيًّا في جوارحه، وكان علمه نورًا له في الدنيا ونجاةً له في الآخرة.



الفصل الرابع: آداب المعلم

المعلم وارث الأنبياء، ومقامه في الأمة عظيم، فهو الذي يتولى تبليغ العلم ونشر الهدى به تُحيا القلوب وتستنير العقول، وإذا صلح المعلم صلح به جيل من التلاميذ، وإذا فسد أفسد وأضلّ، ولهذا جاءت النصوص بالثناء على من علم الناس الخير، والتحذير من كتمان العلم أو طلبه لغير الله، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَّ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ» [رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وحسنه الإمام الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٨)].

فمقام التعليم مقام شريف يحتاج صاحبه إلى آداب تحفظ هيبته وتؤدي رسالته على أكمل وجه فمما ينبغي على المعلم أمور.

الأمور الأول: الإخلاص في التعليم:

أعظم ما يجب على المعلم أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى، فلا يطلب بعلمه دنيا، ولا رياسة، ولا شهرة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥].

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي، إنها تتقلب عليّ.

فالإخلاص أساس القبول والبركة في التعليم.

الأمر الثاني: الرفق بالمتعلمين والصبر عليهم:

من أعظم آداب المعلم أن يرفق بالطلاب، ويصبر على أسئلتهم وأخطائهم، ولا يزجرهم بقسوة.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ» [رواه مسلم(١٨٢٨)].

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أرفق الناس بأصحابه، يعلّمهم بالتي هي أحسن، ويكرّر لهم المعلومة حتى تثبت في قلوبهم.

الأمر الثالث: التدرج في التعليم:

ينبغي للمعلم أن يراعي حال المتعلم، فيبدأ معه بالأصول قبل الفروع، وبالمهم قبل ما دونه.

كما فعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حين بعث معاذًا إلى اليمن، فأمره أن يبدأ بالتوحيد، ثم بالصلاة، ثم بالزكاة. [البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم(١٩)].

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كونوا ربانيين، حلماء فقهاء، يعلّمون صغار العلم قبل كباره.

الأمر الرابع: التحذير من كتمان العلم:

من آفات بعض المعلمين كتمان العلم عن طلابهم، أو عدم نشره إلا لغرض دنيوي، وهذا خطر عظيم، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» [رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي(٢٦٤٩)].

فالواجب على المعلم أن ينشر ما علمه الله، ويؤدي الأمانة، محتسبًا الأجر عند

ربه.

واعلم أيها المعلم أن التزامك بمثل هذه الآداب تنال ثمرات طيبة منها:

- **بركة العلم**، وانتشاره بين الناس.
- **محبة الطلاب**، ودوام الانتفاع بتعليمه.
- **حفظ مقام العلماء** من الابتذال والمهانة.
- **فوزه بأجر عظيم لا ينقطع**، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» [رواه مسلم(١٦٣١)].

المبحث الأول: التواضع للحق وللعلماء

التواضع للعلماء علامة على حياة القلب، ودليل على صدق الطلب، وباب إلى الفهم والبركة، فمن عرف قدر العلماء، عرف قدر العلم، ومن عرف قدر العلم، هانت عليه نفسه في حضرة أهله، فجلس متأدبًا مصغيًا، مقرًّا بالفضل لمن سبقه، إن العاقل إذا جلس بين يدي عالم، جلس كما يجلس الظمآن على شاطئ النهر، لا يمل من الاغتراف، ولا يتكبر عن الانحناء.

والانقياد للحق شرف لا يناله إلا من طهّر قلبه من هوى التعصب، وزيّن نفسه بلباس العدل، فهو يقبل الحق ممن جاء به، لا يرده لأن قائله صغير، ولا يمنعه من قبوله كِبْرٌ أو غلبة جدال، وقد قالوا: الحق أكبر من الرجال، لكن الرجال الكبار هم الذين يعرفون للحق قدره.

كم أضاعت الأمة من أنوار الهداية بسبب الإعراض عن العلماء، وكم حُجبت عن الحق بسبب الكبر والعناد! والتواضع للعلماء ليس تقديسًا للبشر، بل تقدير لحملة إرث الأنبياء، وحفظ لحرمة العلم الذي يحملونه.

أما من استكبر عنهم أو انتقصهم أو رد الحق إذا جاء على لسانهم، فقد جمع بين خصلتين مذمومتين: الكبر ورد الحق، وهما من صفات أهل الضلال، وأي خسارة أعظم من أن يُحرم العبد من الحق لأنه لم يأت على هواه أو من طريق من يحب؟

فليكن طالب العلم في مجلس العلماء كالطبيب في دار الحكمة، يجمع الدواء من كل يد، ولا يلتفت إلى لون الوعاء، إنما همه الشفاء، وليكن شعاره إذا سمع الحق: سمعنا وأطعنا، فإن في الانقياد للحق رفعة، وفي الكبر عنه ذلة، وفي التواضع لأهله عزًا في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الحجر:٨٨].

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ» [رواه مسلم (٢٥٨٨)].

المبحث الثاني: توقير المعلم:

توقير المعلم ليس ترفًا في الأخلاق، ولا زينة في السلوك، بل هو أصل من أصول طلب العلم، وسُلَّم من سلالم الفلاح، فمن لم يعرف لمعلّمه قدره لم يعرف للعلم قدره، ومن استخف بقدر من دلّه على النور، فقد استخف بالنور نفسه.

المعلم هو الذي يفتح للطالب أبواب المعارف، ويقوده في ظلمات الجهل كما يقود

الدليلُ الحائرَ في متاهة الليل، يضيء له السبيل، ويقيه غوائل الطريق، فكيف يُعقل أن يُستصغر من كانت على يديه هداية العقل، وصلاح القلب، ونضج الفهم؟

إن توقير المعلم يزرع في القلب بركة العلم، ويمد في العمر العملي للطالب، ويورثه القبول عند الخلق، أما الجرأة على المعلم فهي آفة تحرم الفهم، وتمحو البركة، وتورث القسوة والخذلان.

ومن شمائل التوقير: خفض الصوت في حضرته، وحسن الإصغاء لحديثه، وعدم مقاطعته أو التقدّم عليه بقول أو فعل، وحفظ غيبته بعد موته كما يحفظها في حياته، فإذا تجرّد قلب الطالب من هذه الأخلاق، كان كالأرض القاحلة، لا تمسك غيثًا ولا تنبت زرعًا.

ولقد كان السلف يوقرون شيوخهم توقيرًا عجيبًا، حتى كان ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يأتي الرجلَ من أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ ليسأله عن الحديث، فإذا وجده نائمًا جلس على بابه ينتظر حتى يخرج، فما نال الإمامة في العلم إلا بصبره وأدبه قبل علمه.

فيا طالب العلم، إن كنت تريد نور الفهم، وثبات الحفظ، وسداد القول، فاعرف لمعلّمك حقه، فذلك دين ووفاء قبل أن يكون أدبًا وحياء، ومن أضاع هذا الحق فقد أضاع نفسه، ولن يجد للعلم طعمًا ولا للبركة أثرًا.



الفصل الخامس: آداب المجلس العلمي:

إذا همّ الطالب بدخول مجلس العلم، فليدخل بسكينة ووقار، غير عجل ولا مضطرب، وليبدأ بتحية السلام على الشيخ والحاضرين، فإنها مفتاح القلوب ومظهر المودة، وليجلس حيث ينتهي به المجلس، دون مزاحمة أو تكلف، فإن وجد فرجة قرب الشيخ فليدنُ منها بلا أذى لأحد، وليكن مجلسه على هيئة المتأدب؛ مطرق الرأس، حاضر القلب، منصت السمع، ولا يرفع صوته فوق صوت الشيخ، ولا يقطع حديثه إلا بإذنه، ولا يسأل إلا سؤال المتعلم المتوقر، منتقيًا ألفاظه، مخلصًا في طلبه.

وليحذر الانشغال عمّا يقال، فالمشتت لا يظفر بعلم، وليدوّن ما يسمع من الفوائد، فإن القلم حافظ والذاكرة تخون، وليتجنب المزاح والضحك إلا ما كان يسيرًا يعين على الأنس ولا يذهب المهابة، وليترك المراء والجدل الذي يطفئ نور العلم، وليحفظ حرمة المجلس، فلا يشيع ما يقع فيه من هفوة، ولا يذيع زلّة، وليكرم الشيخ بذكره بخير في غيبته، والدعاء له في خلوته، وخدمته فيما يقدر عليه من غير منّة ولا إلحاح.

وليأتِ مجلس العلم على طهارة، بثوب نظيف ورائحة طيبة، فذلك من توقير العلم وأهله، وليصبر على طول الدرس أو مشقته، محتسبًا ذلك عند الله، فإن العلم لا يُنال براحة الجسد، وإذا انصرف انصرف شاكرًا لله أن يسّر له حضور المجلس، سائلاً المولى أن ينفعه بما سمع، وأن يجعله زادًا ليوم المعاد.

أما تفصيل ذلك فهو ما يلي:

١) **الدخول بسكينة ووقار، وتجنب العجلة والاضطراب**

ينبغي لطالب العلم أن يدخل مجلس شيخه بسكينة وطمأنينة، متأدبًا في مشيته وجلوسه، فلا يقتحم المجلس اقتحامًا، ولا يظهر فيه اضطرابًا أو عجلة، فإن العلم نور، والنور لا يليق به العبث ولا التسرع، ومن أهم ما يزيّن الطالب أن يكون مظهره فيه سمات الوقار والهدوء.

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

هذا الأدب يربي القلب على الخشوع والتواضع، ويورث صاحبه مهابة بين الناس، فإذا جلس بسكينة انفتحت له القلوب، وأقبلت عليه بركات المجلس، أما من دخل بعجلة واضطراب، ضاع وقاره، وفاتت عليه هيبة العلم، وربما انصرف عنه الشيخ والجلساء، فالأناة زينة في كل شيء، ولا سيما في طلب العلم.

٢) **إلقاء السلام على الشيخ والحاضرين، وردّ التحية بأحسن منها:**

إذا دخل الطالب مجلس العلم فليبدأ بتحية الإسلام، فهي مفتاح القلوب، وباب الألفة، وشعار أهل الإيمان، ولا يقتصر على الشيخ فقط، بل يعمّ بالسلام جميع الحاضرين، ثم يردّ على من سلّم بأحسن مما سلّم به، فذلك أدعى للمودة وجامع للنفوس.

قال النبي ﷺ: «**أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**» [رواه مسلم (٥٤) من

حديث عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

السلام كلمة جامعة للخير، تورث المحبة، وتزيل الوحشة، وتجعل للمجلس روحًا طيبة، وإذا افتتح الطالب دخوله بها، كان مأجورًا ومحبوبًا، وتهيأت النفوس للعلم، وأما من أعرض عن السلام أو خصّ به الشيخ دون بقية الطلبة، فقد فوت على نفسه أجرًا عظيمًا وأخلّ بأدب الجماعة.

٣) **عدم مقاطعة الشيخ إلا بإذنه، وانتظار فراغه من الكلام:**

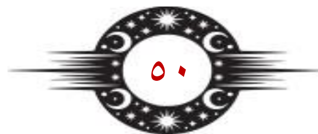
من أعظم الأدب أن يترك الطالب شيخه حتى يتم كلامه، فلا يقطع حديثه ولا يعترض عليه إلا بعد الاستئذان، فإن الكلام حال التعليم له حرمة، ومقاطعة المعلم فيها استخفاف بقدره، وإضاعة لهيبة المجلس، وتفويت للفائدة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات: ١].

يمكن حمل هذه الآية على معنى عام في الأدب، فكما أن المؤمن مأمور أن لا يتقدّم بين يدي ربه ورسوله، فكذلك أن لا يتقدّم بين يدي من يعلمه العلم الذي عن الله ورسوله، فلا يرفع صوته فوق صوته، ولا يقطع حديثه حتى يفرغ، بل يصغي بوقار حتى ينال بركة العلم وصفاء الفهم.

٥- **تدوين الفوائد بدقة، فإن القلم أمين والذاكرة خائنة:**

من تمام الانتفاع بالعلم أن يدوّن الطالب ما يسمعه من الفوائد؛ فإن الأسماع تضعف، والذاكرة تخون، أما ما سُطّر في الأوراق فيبقى ذخرًا للأيام، والقلم



حافظ أمين لا يملّ ولا ينسى، به تُحفظ العلوم، وتنتقل للأجيال.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ» [رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢٢٧)، رقم (١١٥٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٣٤)].

تقييد العلم بالكتابة لا يعني ضعف الحافظة، بل هو دليل حرص على صيانة العلم من الضياع، فكم من فائدة سمعتها الأذن ثم تلاشت، وكم من معنى شريف حفظه القلم فبقي شاهدًا، والموفق من جمع بين الحفظ والتدوين، فيستغني بالقلمين: قلم في صدره، وقلم في يده.

٦- الإنصات التام وترك الانشغال، وإحضار القلب مع السمع:

إذا جلس الطالب في مجلس العلم فليفرغ قلبه وسمعه، وليترك كل ما يشغله، فإن العلم لا يدخل قلبًا مشغولًا، ولا يثبت في ذهنٍ لاهٍ، والإنصات من آكد آداب التلقي، به يورث الفهم، ويُنال بركة المجلس.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

هذه الآية ذكر بعضهم أنها خاصة في الصلاة، ولكن يمكن حملها على معنى عام في آداب الاستماع؛ فإذا كان الاستماع للقرآن يوجب الرحمة، فالاستماع للعلم يُرجى به الفهم والهداية، ومن لزم الصمت والإصغاء ظفر بعلم غزير، ومن شُغل قلبه أو لسانه فاتته الفوائد، وكان كمن حضر جسدًا وغاب روحًا.

عن زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ قال: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ» [رواه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٦٨)].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ ضرب مثل العلم بالمطر النافع فقال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» [رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢)].

فهذه الأحاديث بيّنت أن العلم لا ينتفع به إلا من أصغى بسمعه، وفرّغ قلبه لحفظه وتبليغه، وأما من شغل نفسه وترك الإصغاء فهو كالقيعان التي لا تمسك ماء ولا تنبت نباتًا.

وفي زماننا هذا دخلت آفات لم تكن من قبل؛ فكم أضاع الهاتف الذكي على صاحبه من دقائق هي أنفس من الذهب! وكم فرّقت مواقع التواصل قلبًا عن مجلسه، وجعلت الطالب حاضرًا صورةً غائبًا معنى! فالواجب أن يُطفئ كل ما يشغله، ويغلق أبواب الملهيات قبل دخوله، فإن العلم لا يُعطى إلا لمن أعطاه قلبه كله، ومن جلس وشيخه يشرح وهو يتصفح هاتفه، أو يرد على رسالة، أو يتابع إشعارًا، فقد خان نفسه، وأساء الأدب مع شيخه، وفاته خير كثير، بل ربما حُرم

بركة المجلس كله، وعاد كما دخل لم يظفر إلا بالحرمان، نسأل الله السلامة.

٧- اختيار الموضع المناسب للجلوس، والاقتراب من الشيخ بغير مزاحمة:

من أدب الطالب أن يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يزاحم إخوانه، فإن وجد فرجة قرب الشيخ جلس فيها بغير أذى لأحد، فذلك أقرب للانتفاع وأدعى للتوقير، والجلوس المتأدب عنوان صدق النية.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا**». متفق عليه: [رواه البخاري (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧)].

الجلوس حيث ينتهي المجلس يعلّم الطالب التواضع، وعدم التطلع لما في يد غيره، فإن دنا من شيخه بأدب نال بركة القرب، وإن قنع بمجلسه كُتب له أجر الرضا، أما المزاحمة فهي تذهب المروءة، وتوقع العداوة، وربما فوتت على الطالب الانتفاع بالعلم.

٨- التأدب في السؤال، وانتقاء ألفاظ التوقير، وتقديمه بعبارات الاحترام:

السؤال مفتاح العلم، ولكن ينبغي أن يكون بوقار وأدب، فلا يرفع الطالب صوته، ولا يغلظ عبارته، بل يقدّم كلامه بعبارات التوقير، فإنما يسأل ليتعلم لا ليمتحن، والكلمة الطيبة تُلين قلب الشيخ وتفتح أبواب العلم.

قال الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: ٤٣].

هذه الآية أصل في السؤال عن العلم، والمراد به سؤال المتعلم لمعلمه، ويمكن

حملها على معنى أشمل وهو أن يكون السؤال بأدب وتواضع، فإن السؤال على وجه التعظيم يجلب البركة، أما السؤال على وجه التحدي والمراء فإنه يورث الحرمان.

٩- تجنب الإكثار من الأسئلة التي لا حاجة لها، أو التي تُخرج المجلس عن مقصده:

ليس من الأدب أن يثقل الطالب على الشيخ بكثرة الأسئلة، أو يُكثر من الاعتراضات التي تشتت المجلس وتقطع الفائدة، بل يقتصر على ما ينفعه في دينه، ويترك الفضول الذي لا يعود بخير، فالعلم أثمن من أن يُضيع في جدل.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ ﴾ [المائدة: ١٠١].

يمكن حمل هذه الآية على معنى عام في النهي عن كثرة السؤال الذي لا حاجة له، فإذا كان السؤال في زمن النبوة قد نُهي عنه خشية المشقة، فكيف بأسئلة تقطع الوقت ولا تزيد علماً؟ إنما المطلوب السؤال النافع، الذي يقوّي الفهم ويزيد اليقين.

١٠- ترك المزاح والضحك إلا بقدر يسير يعين على الأنس:

المزاح المفرط يذهب المهابة ويُفقد الوقار، ولا يليق بمجلس العلم أن يكون ساحة لعب ولهو، ولكن لا بأس من مزحة خفيفة أو كلمة طيبة تشرح الصدر وتعين على النشاط، بشرط أن تبقى في حدود الأدب والهيبة، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ

يُؤْمِنُ بِاللهِّ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِّ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» متفق عليه: [رواه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٨)].

هذا الحديث أصل جامع في آداب الكلام، فكل ما يخرج من فم المؤمن ينبغي أن يكون خيرًا، فإذا كان المزاح صدقًا ورفقًا جاز بقدر يسير، أما إذا جاوز الحد صار لغوًا يُطفئ نور المجلس ويضيع هيبته، والميزان أن يبقى المجلس مجلس علم، فيُحفظ وقاره، ويُصان عن الهزل والباطل.

١١- عدم التحدث مع الجلساء أثناء شرح الشيخ:

إذا تكلّم الشيخ فينبغي الإنصات، ولا يليق بالطالب أن يلتفت إلى جليسه بالحديث أو التعليق الجانبي، فإن ذلك يشوش على السامعين ويضيع على نفسه الفائدة، ومن الأدب أن يفرغ سمعه كله لشيخه، فما سمعه بقلبه ووعاه فهو أثبت من كل مكتوب.

عن أبي واقد الليثي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ فِي المَسْجِدِ فَأَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا، فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ، فَجَلَسَ وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ: فَأَوَى إِلَى اللهِّ، فَآوَاهُ اللهُّ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُّ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُّ عَنْهُ**» [رواه البخاري (٤٧٤)، ومسلم (٢١٧٦)].

هذا الحديث فيه بيان لحال الداخلين على مجلس العلم، وكيف أن الله يجازيهم

بحسب إقبالهم أو إعراضهم، فمن أقبل على المجلس جلس وأصغى فنال البركة، ومن جلس مع الاستحياء كان له نصيب، ومن أعرض ولم يلقِ بالًا أعرض الله عنه، فكيف بمن حضر جسدًا، ثم انشغل بحديث جانبي أو هاتف في يده، حتى صار وجوده كلًّا وجود؟

فعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ» [رواه مسلم (٢٥٩٢)].

والحديث أصل في أن الرفق مطلوب في كل الأحوال، ومن أعظم صور الرفق في المجلس أن يرفق الطالب بالشيخ فلا يشوش عليه، ويرفق بإخوانه فلا يقطع عنهم الفائدة، أما من شغل جليسه بكلام دنيوي أو تعليق عابر، فقد حرمه الله خيرًا كثيرًا، وأفسد على غيره صفاء قلبه، وضاع المجلس بين لغو ولغط.

فينبغي على طالب العلم أن يضبط لسانه في المجلس، ولا ينطق إلا بما أذن به الشيخ أو اقتضته حاجة علمية، أما غير ذلك فسكوتُه عبادة، وصمتُه زينة، وهو أقرب لنيل بركة العلم ونوره.

١٢- إظهار الاهتمام بكلام الشيخ، وعدم التثاقل أو التململ:

من أدب الطالب أن يُقبل على شيخه بكليته، يظهر عليه الاهتمام والحرص، ولا يتثاقل أو يتململ، فإن ذلك يورث المقت ويدل على ضعف النية، والشيخ إذا رأى من طلابه حسن الإقبال، شرح الله صدره وزاد في عطائه.

عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «نَضَّرَ اللَّهُ

امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» [رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٦٨)].

هذا الحديث أصل في أن بركة العلم مرتبطة بحسن الاستماع، فمن أقبل بكليته، حفظ الله عليه علمه ونوّر قلبه، حتى ربما نقل ما سمعه إلى من هو أفقه منه فانتفع وانتفع غيره، وأما من حضر بكسل وتململ، أو جلس متشاغلًا غافلًا فقد ضيّع حظه من النور، وخرج كما دخل.

١٣- عدم رفع الصوت فوق صوت الشيخ:

الطالب المتأدب يخفض صوته بحضرة شيخه، فلا يعلو صوته على صوته، ولا يغلبه بالكلام، فإن رفع الصوت فوق صوت المعلّم منافٍ للأدب، ومجلبة للمقت، وربما حُرم صاحبه بركة العلم، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا»** [رواه أحمد (٦٧٣٣)، وأبو داود (٤٩٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٤٣)].

فإجلال العالم من حقه، ومن تمام الإجلال أن لا يعلو صوت الطالب فوق صوته، فإن ذلك سوء أدب وذهاب للوقار، فإذا جلس الطالب مطرقًا خافضًا لصوته، نال بركة العلم، وسكن قلبه، وأحبه شيخه وأكرمه الله بالقبول، وأما من رفع صوته أو جادل شيخه فقد جنى على نفسه، وربما حُرم لذة العلم كلها.

١٤- حفظ هيبة المجلس العلمي:

بعدم الانشغال بالأجهزة أو النظر فيما لا فائدة فيه مجلس العلم له حرمة، ومن أدبه أن يُقبل الطالب بكليته، فلا ينشغل بجهاز أو يطالع ما لا ينفع، فإن هيبة المجلس تحفظ بهيبة أعضائه، ومن استهان بها فقد فوّت على نفسه خيرًا كثيرًا.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**» [رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٣١٧)].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**» [رواه الترمذي (١٩٥٩)، وأبو داود (٤٨٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦٨)].

هذا الحديث يدل على أن المجالس أمانة، وأن ما يقع فيها ينبغي أن يُصان ولا يُفشى، فكيف بمن يفرط في الحرمة بانشغاله بما لا ينفع أو بتصوير أو بنقل لغوٍ عبر الهاتف؟

فهذه النصوص قواعد عظيمة في ضبط الجوارح عن اللغو، فطالب العلم أولى الناس بترك ما لا يعنيه، ومن شغل نفسه بما يقطع انتباهه فقد ضيع وقتًا لا يُعوَّض، ومن عظم حرمة المجلس عظّمه الله في قلوب عباده، وأثابه بركة الفهم، وأما من انشغل بهاتفه أو مواقع التواصل فقد أساء الأدب، وخرج من المجلس ولم يظفر بشيء سوى الحرمان.

١٥- ستر ما قد يقع من خطأ في المجلس، وعدم نشره خارجه:

قد يقع من الشيخ أو من أحد الطلبة هفوة أو زلة، وليس من الأدب أن يُشيعها الطالب بين الناس، بل الواجب سترها، فإن ستر المسلم سبب لستر الله له يوم القيامة، ومن حفظ سر المجلس بورك له في علمه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

المجالس أمانات، ومجلس العلم أحقها بالستر، فإذا رأى الطالب خطأً فليدعُ لصاحبه بالخير ولينصح له ولا يُشهِّر به، فإن ذلك أدعى لدوام المودة وصفاء القلوب، ومن فضح هفوات المجالس عوقب بمثلها، وخسر بركة العلم وأهله.

١٦- إكرام الشيخ بالثناء عليه في حضوره وغيابه، والدعاء له بعد المجلس:

من شكر النعمة أن يُثني الطالب على شيخه بالخير، في حضوره وغيبته، ويدعو له بعد المجلس، فإنما هو سبب لانتقال العلم إليه، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والدعاء للشيخ برهان الوفاء، وحسن العهد من شيم الكرام، فعن عبد الله

بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ» [رواه الترمذي (٢٠٣٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٠٣٥)].

الثناء على الشيخ ليس رياءً ولا مداهنة، وإنما هو شكرٌ للنعمة وردٌّ للجميل، ومن أثنى ودعا لشيخه ألان الله قلبه، ورفع قدره، وزاده من فضله، ومن جحد الفضل فقد حُرم التوفيق، وكان كالأرض الجدباء لا تنبت زرعًا.

١٧- الصبر على طول الدرس أو شدته، واحتساب التعب في سبيل تحصيل العلم:

طلب العلم طريقه طويل، ومجالسه قد يعتريها مشقة وتعب، ولكن الصبر عليها مفتاح الفلاح، فلا ينال العلم براحة الجسد، وإنما ينال بالكد والاجتهاد، والطالب الصادق يحتسب تعبه عند الله، فيجعل كل لحظة نصبًا في سبيل العلم قربة وعبادة، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» متفق عليه: [رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» [رواه مسلم (٢٨٢٢)].

فهذا يبين أن طريق الجنة محفوف بالتعب والمشقة، ولا شك أن طلب العلم من أعظم طرقها، فلا يُنال إلا بصبر على مكاره النفس والتعب ومشقة الجلوس.

فالصبر زاد طالب العلم، فمن ضجر أو ملّ حُرم الثبات، ومن احتسب وصبر أثابه الله فهمًا ونورًا، والعلم كالبحر العميق، لا يناله إلا من صبر على غوصه، وتحمل مشقة الأمواج حتى يصل إلى لآلئه، ومن لم يصبر على الدرس والمراجعة، بقي على الساحل، ينظر إلى البحر ولا يظفر بشيء من درره.

١٨- مراعاة حال الجلساء، وترك التضييق عليهم في المكان:

مجلس العلم مشترك بين الطلاب، ومن الأدب أن يراعي بعضهم بعضًا، فلا يضيق أحدهم على جليسه، ولا يستأثر بمكان واسع ويترك غيره في ضيق، بل يتفسح ليجلس الجميع بسعة، فإن في ذلك بركة وألفة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾ [المجادلة: ١١].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ» متفق عليه: [رواه البخاري (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧)].

فالآية الكريمة ترشد إلى التوسعة في المجالس، وتَعِد بأن من وسَّع على غيره وسّع الله له في الدنيا والآخرة، والحديث ينهى عن إزاحة المسلم من مكانه طلبًا

للجلوس فيه، فذلك مما يوقع الضغائن، ومن جمع بين الأمرين، فوسع على جليسه، ورضي بما قسم الله له، عاش المجلس كله في سكينة وراحة، وأقبل الطلاب على العلم بقلوب مطمئنة، أما إذا ضيّق بعضهم على بعض، أو أزعجه من مكانه، تشوشت النفوس وفاتت البركة.

١٩- حضور المجلس على طهارة ونظافة ولباس حسن، فإن ذلك من توقير العلم:

من توقير العلم وأهله أن يتهيأ الطالب لمجلسه، فيأتي بطهارة ونظافة، ويلبس لباسًا حسنًا يليق بمقام العلم، فإن الله جميل يحب الجمال، والمجلس الذي يزينه الطيب والنظافة يكون أحب إلى الله وأقرب إلى الملائكة، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» [رواه مسلم (٩١)].

فالهيئة الحسنة واللباس الجميل ليست من الكبر، بل من إكرام النفس وتوقير المجلس، فإذا طاب مظهر الطالب طاب مجلسه، وأقبل الناس على حديثه، ونال توقير العلم وأهله، وأما من أهمل الطهارة والنظافة، فقد استهان بالعلم من حيث لا يشعر، ونقص من قدر المجلس.

٢٠- تجنب الجدل والمراء، فإنهما يطفئان نور العلم:

الجدال والمراء يورثان القسوة، ويقطعان طريق الفهم، ويضيعان وقت المجلس

في نزاع لا ثمرة له، ومن أدب طالب العلم أن يطلب الحق لا الغلبة، وأن يلزم الصمت إذا بان له الصواب، فإن نور العلم لا يجتمع مع ظلمة المراء، فعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف]. [رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٢٥٣)].

هذا الحديث أصل في ذم الجدل، فالمماراة تطفئ نور القلب وتحجب بركة العلم، ومن طلب العلم ليخاصم به كان علمه حجة عليه، أما من طلبه للهدى والحق فتح الله له أبواب الفهم، وأورثه نورًا يضيء له في الدنيا والآخرة.

٢١- المبادرة إلى خدمة الشيخ بما لا يشق:

إجلال الشيخ وخدمته فيما لا يشق من تمام البر بالشيخ أن يُكرمه الطالب ويُعينه بما يستطيع دون كلفة ولا منّة، فذلك من الوفاء والتواضع وتوقير العلم وأهله، ومن تواضع لله رفعه الله، وليس المقصود أن يتكلف الطالب بما يشق عليه، وإنما أن يُبادر إلى كل ما يدخل في باب الإحسان والمعروف، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «المُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ، وَلَا يُؤْلَفُ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» [رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٥٧٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٨٩)].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنِ اسْتَعَاذَ

بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»

[رواه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٧٢)].

فخدمة الشيخ صورة من صور النفع، وهي في حقيقتها خدمة للعلم وتعظيم لشأن الوحي الذي يحمله، ومن بادر إلى البر والإحسان أورثه الله بركة في عمره وعلمه، وأجرى الخير على يديه، ومن استنكف أو تكاسل فقد ضيّع على نفسه بابًا من أبواب المروءة، وحُرم من بركة التواضع، وبقي علمه بلا ثمرة.

وهكذا تُختتم آداب المجلس العلمي بخلق جامع يردّها جميعًا إلى أصل عظيم: **الإحسان في المعاملة، وتعظيم العلم وأهله، وابتغاء وجه الله في كل ذلك**، فمن أخذ بهذه الآداب بورك له في عمره وعلمه، وجعل الله مجلسه نورًا يوم يلقاه.



الفصل السادس : الصبر على طلب العلم :

الصبر على طلب العلم هو زاد السالكين إلى معالي الفهم، وراحة القلوب في عناء الطريق؛ فالعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، ومن أراد أن يقطف ثماره اليانعة فلا بد أن يزرعها بعرق الجِدِّ، ويسقيها بدموع الصبر، هو سفرٌ طويل لا تُقطع مسافاته بالأقدام، بل بثبات العزائم، ومجاهدة النفس، واحتمال المشقة في برد السَّحَر ووهج الظهيرة، كم من طالبٍ ضاق صدره أمام أبواب المسائل فصبر حتى انفتحت له كنوز الفهم، وكم من مُجِدٍّ لزم شيخه على الجوع والضيق، فصار إمامًا يُقتدى به، فليعلم طالب العلم أن الصبر فيه عبادة، وأن ساعات التحمل تُترجم غدًا إلى أمانٍ محققة، وأنه كلما اشتدّ عليه لهيب التعب، كان ذلك بشيرًا بقرب الفتح؛ فإن مع المحنة مِنحة، ومع الكدح فلاح، ومن ذاق مرارة الصبر قطف حلاوة الظفر.

الصبر على طلب العلم تاجٌ لا يضعه الله إلا على رؤوس من أخلصوا النيّة، وشدّوا المئزر، وارتضوا أن يسيروا في طريقٍ طويل محفوف بالمكابدة، فالعلم – كما قالوا – لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، ولا يفتح خزائنه إلا لمن صبر على طرق أبوابه في ليلٍ طويل ونهارٍ مُرهِق، هو رحلة لا تُقاس بالأميال، بل تُقاس بمدى احتمال القلب وضبط النفس، واحتمال الجوع والظمأ، والسهر الطويل على ضوء السراج أو تحت وهج القمر، فيه يسقط المتعجِّل من أول الطريق، ويبقى الصابر حتى يُسمع اسمه مع الكبار.

كم من طالبٍ أوصدت أمامه أبواب الفهم، فطرقها بمداد الصبر حتى انفتحت له، وكم من مُجِدٍّ لزم شيخه في حر الصيف وبرد الشتاء، فصار بعد أعوام إمامًا في صدر المجالس، الصبر في الطلب عبادة قلبية، تُزكّي النفس، وتعلّمها التواضع، وتورثها اليقين بأن العاقبة للثابتين، وإذا اشتدت المشقة وبلغ الجهد منتهاه، كان ذلك بشيرًا بأن الفتح قريب، وأن مع كل عسرٍ يُولد يسران، ومع كل دمعةٍ تُكتب آيةُ فلاح.

فيا طالب العلم، تذكّر أنَّ من ذاق مرارة الصبر قطف حلاوة الظفر، وأنه لا يستوي عند الله من لزم مجالس العلماء وهو صابر محتسب، ومن ركن إلى الراحة فاته ميراث الأنبياء، فاصبر صبر الكرام، تجد أن التعب عابر، والذكرى باقية، وأن طريقك – مهما طال – يُفْضِي بك إلى نورٍ لا يزول.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ» [رواه الترمذي (٢٢٦٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٢٠)].

طلب العلم أشرف المقاصد، وسمى الغايات، لكنه طريق محفوف بالمكاره، لا يقطعه إلا صابر متجلّد، ولا يدرك نهايته إلا من حمل روحه على المكابدة، وعوّد نفسه احتمال العناء، فالعلم ميراث الأنبياء، ولا يُنال براحة الجسد ولا بسكون الهوى، وإنما يُنال برحلة طويلة تبدأ من الصبر، وتستمر بالصبر، وتنتهي بثماره.

المتأمل في سير السلف يجد أنهم لم يبلغوا مراتب الإمامة إلا بعد أن صبروا على جوع واغتراب، وسهر وحرمان من الملاذ، بل جعلوا المشقة في الطلب عنوانًا على صدقهم، وابتغاءهم وجه الله، فمنهم من كان يرحل شهورًا لأجل حديث واحد، ومنهم من كتب على العظام إذا أعوزه الورق، ومنهم من جلس على أبواب العلماء في البرد القارس لا يبرح حتى يُؤذن له بالدخول، كانوا يوقنون أن مشقة الطريق أهون من ضياع العمر في الجهل، وأن ساعة في مجلس العلم خير من سنين في غفلة وفراغ.

الصبر على الطلب ليس مجرد احتمالٍ للجوع أو السهر، بل هو ثباتٌ أمام الفتور، واستمرارٌ رغم العوائق، وإخلاصٌ يبتغي وجه الله دون رياء، وإذا كان التاجر يصبر على وعثاء السفر من أجل دنياه، والمجاهد يصبر على شدّة القتال في سبيل دينه، فإن طالب العلم أولى بالصبر، لأنه يسعى لما يُصلح دنياه وآخرته، ويخلد ذكره في حياة الأمة.

ومن ذاق مرارة الصبر في بداياته، ذاق حلاوة الظفر في نهاياته، فالعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، ومن بخل عليه بالجهد والوقت، بخل عليه العلم بعطاياه، وهكذا كان دأب السلف: صبرٌ يورث فهمًا، وفهمٌ يورث عملًا، وعملٌ يورث رفعة في الدنيا والآخرة.

المبحث الأول: مكانة الصبر في تحصيل العلم

الصبر في طلب العلم هو مفتاح كنوزه، وباب الوصول إلى معاليه، ومن فقده ضلّ عن طريقه وإن كثرت أدواته. هو وقود الهمّة في ساعات الفتور، وسراج الطريق إذا أظلمت مسالكه، ودرع الطالب أمام سهام الملل والكسل، العلم لا يُعطيك جواهره حتى تبذل له عمرك، ولا يفتح خزائنه إلا لمن صبر على طرق أبوابه في برد السَّحر ووهج الظهيرة، وفي سَعة الفَراغ وضيق الشدّة، بالصبر تُستَثمر الأوقات، وتُذلَّل الصعاب، وتُرفع الدرجات، فهو عبادةٌ قلبيةٌ تُزكّي النفس، وتورث صاحبها ثباتًا وهيبةً ونورًا، ومن لم يصبر على مشقة الطلب ذاق مرارة الجهل، وندم حيث لا ينفع الندم، وكان كمن استعجل الحصاد قبل أن يكتمل نضج الزرع، فلا هو ظفر بالثمر، ولا هو سلِم من الخسران.

المبحث الثاني: نماذج من صبر السلف في طلب العلم

تاريخ الأمة حافل بصور مدهشة من صبر السلف على طلب العلم، صورٍ لو لم تُنقل لنا لظنناها من نسج الخيال، فهذا إمام يرحل شهورًا في الصحاري والقفار من أجل حديث واحد، وذاك يبيت طاوي البطن لا يشغله عن مجلس العلم جوع ولا عطش، وثالث يكتب الفوائد على عظام الأنعام إذا أعوزه القرطاس، وآخر يقف على باب شيخه في الليالي الباردة ينتظر خروجه كأنما يقف على باب الجنة، لم تصرفهم قسوة المناخ، ولا طول السفر، ولا فقدان الراحة، بل كانوا يرون المشقة في الطلب لذةً، ويعدّون كل تعب طريقًا إلى شرف الفهم، كانوا يعلمون أن دقائق

الصبر في الطلب تعادل ساعات النعيم في الفهم، وأن من صبر اليوم على العناء فرح غدًا بثمار البقاء؛ فكتب الله ذكرهم في القلوب، وخلّد آثارهم في بطون الكتب، فصاروا أئمة يُهتدى بهديهم، ويُقتفى أثرهم.

فمن النماذج:

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان هو وجاره الأنصاري يتناوبان النزول إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فيذهب أحدهما يومًا والآخر يومًا، فيبلّغ الغائب ما فاته من العلم. [انظر: صحيح البخاري: (٨٩)].

عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

كان يبيت على باب الصحابي ينتظر خروجه ليسأله عن الحديث، فتبلّه الرياح بالتراب، تواضعًا لطلب العلم. [انظر: الحلية (١/ ٣٠٧)، السير (٣/ ٣٣١)].

جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

سافر شهرًا كاملًا إلى الشام على بعير ليسمع حديثًا واحدًا من عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. [انظر: مسند أحمد (١٤٦٢٥)، السير (٣/ ١٨٨)].

أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان يلازم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليلًا ونهارًا على شدة الجوع حتى كان يخرّ مغشيًا عليه في المسجد، حرصًا على حفظ الحديث. [انظر: صحيح البخاري (٢٠٤٧)، السير (٢/ ٥٧٨)].

زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعلم السريانية في سبعة عشر يومًا فقط بطلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ليقرأ له كتب اليهود. [انظر: صحيح البخاري (٣٠٤٧)، السير: (٣/ ٤٤)].

أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

رحل إلى مصر بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليسمع حديثًا واحدًا من عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. [انظر: المعجم الكبير للطبراني (٤/ ١٧٤)، السير (٢/ ٤١٩)].

أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

خدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عشر سنين، فحفظ عنه دقائق أفعاله وأقواله، وصبر على طول الملازمة. [انظر: صحيح مسلم (٢٣٠٩)، السير (٣/ ٣٩٥)].

عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

كان يتتبع آثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في السفر والحضر، فيقف حيث وقف، ويصلي حيث صلى، طلبًا لاتباع السنة. [انظر: صحيح البخاري (٤٨٣٠)، السير (٣/ ٢٠٤)].

أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان يقرأ القرآن ويتعلّمه من فم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مباشرة، ويطيل الجلوس معه حتى وصفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأنه أعطي مزمارًا من مزامير آل داود. [انظر: صحيح البخاري (٥٠٤٨)، السير (٢/ ٣٨١)].

سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قطع البلدان من فارس إلى الشام إلى المدينة بحثًا عن الحق، وبذل ماله وجهده حتى لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. [انظر: مسند أحمد (٢٣٤٠٨)، السير (١/ ٤٩٣)].

المبحث الثالث: الصبر على الفقر والجوع في سبيل العلم:

إنّ طريق العلم ليس مفروشًا بالورود، ولا ممهّدًا بالراحة والدِّعَة، وإنما هو طريق وعر لا يقطعه إلا من حمل قلبًا صابرًا، ونفسًا عازمة، وهمّة تناطح السحاب.

وقد علم السلف الصالح أن ميراث الأنبياء لا يُنال إلا ببذل الغالي والنفيس، فصبروا على لأواء الفقر وضيق ذات اليد، واحتملوا الجوع أيامًا وليالي، يرون في كل لقمة فاتتهم زادًا للآخرة، وفي كل ساعة جوع قضوها سبيلًا إلى الشبع من العلم، كانوا يرضون من الدنيا بخبز يابس، أو جرعة ماء، أو ظلّ شجرة، ما دام ذلك يقرّبهم من مجلس عالم أو يفتح لهم باب رواية، وفي سيرهم دروس بليغة، تعلّم الأجيال أن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وأن من طلب الراحة فاتته الرفعة، ومن صبر على المشقة نال شرف السبق والذكر الحسن.

وإليك نموذجا عظيما في هذا الصدد، جاء عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ**» [رواه الترمذي (٢٤٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٧٥)].

المبحث الرابع: الصبر على الأذى في سبيل نشر العلم

إن الصبر على الأذى في سبيل نشر العلم ميراث جليل من ميراث الأنبياء، لا يسلم منه من رفع راية الحق، ولا ينجو منه من أظهر نور الهدى، فقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان:٣١].

وأمر الله نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بالصبر على خُطَا الرسل من قبله، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وبيّن سبحانه أن الدعوة لا بد أن يسبقها البلاء، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤].

وقد أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أن الابتلاء سنة ماضية في أهل العلم والإيمان، فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» [رواه الترمذي (٢٣٩٨) وأحمد (١٤٨١) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ

وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» [رواه مسلم (٥٠)].

فهذه النصوص شاهدة أن طريق نشر العلم محفوف بالأذى، وأن الثبات فيه علامة صدق، وأن أهل الحق لا بد أن يُواجهوا بحرب معنوية أو جسدية، لكنهم يجدون في الصبر عليه رفعة عند الله، وطمأنينة بأنهم يسيرون على خطى الأنبياء.

ومن لم يصبر على الأذى، فلن يقدر على حمل هذا الميراث، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل:٥]، وقال ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:٣].

وقد قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يُستطاع العلم براحة الجسد.

من لم يذق مر التعلم ساعة ... تجرع كأس الجهل طول حياته

فالصبر على الأذى في سبيل نشر العلم ليس مجرد فضيلة، بل هو شرط من شروط بلوغ الرسالة، وواجب من واجبات من أراد رضا الله ونفع الأمة.

وتأمل أعظم نموج في هذا الصدد ما جاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)].

المبحث الخامس: وسائل تعين على الصبر في طلب العلم

إن الصبر في طلب العلم لا يتأتى إلا بأسباب تعينه وتقويه، وقد ذكر العلماء وسائل عديدة تُنمّي هذه الخصلة في قلب الطالب، وتجعله قادرًا على الاستمرار في طريق طويل محفوف بالمشقة، ومن أهم هذه الوسائل:

✓ الإخلاص لله تعالى:

الإخلاص أساس كل عمل، وهو أعظم ما يمدّ الطالب بالقوة على احتمال المشاق؛ لأن من أخلص لله هان عليه ما يلقى في سبيله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ قال: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» [رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)].

✓ استحضار فضل العلم وأهله:

إذا استحضر الطالب أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، وأن العلماء ورثة الأنبياء، صبر على المشقة، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِوَسَلَّمَ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» [رواه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ].

✓ التأسي بالسلف الصالح:

قراءة سير العلماء، ومعرفة صبرهم على الجوع والفقر والرحلة، يبعث في النفس العزم، قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

✓ **مصاحبة أهل الهمم العالية:**

فالمرء يضعف وحده ويقوى بالجماعة، ومجالسة أصحاب الهمم العالية تعين على الثبات، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» [رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وصححه الألباني].

✓ **التدرج في الطلب وعدم استعجال الثمرة:**

فالعلم يُؤخذ شيئًا فشيئًا، كما **قال الزهري**: من طلب العلم جملة ذهب عنه جملة، والتدرج يقلل الإحباط ويزيد القدرة على الاستمرار.

✓ **تنظيم الوقت وحفظه من الضياع:**

فالوقت هو رأس مال طالب العلم، ومن لم يحفظه ضاع عمره في غير طائل.

قال الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك.

✓ **الدعاء وطلب العون من الله:**

فلا حول للعبد ولا قوة إلا بالله، والدعاء من أعظم أبواب التوفيق، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِوَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ**» [رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ].

✓ **الصبر على المشايخ والكتب والدروس:**

والصبر على طول الشرح والتكرار والتعليق من أهم وسائل التحصيل.

✓ **الإكثار من العمل بالعلم:**

العمل بما تعلمه الطالب يرسّخ العلم في قلبه، ويزيده محبة له، فيستمر في طلبه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد:١٧].

✓ **استشعار عِظَم الأجر يوم القيامة:**

فمن علم أن تعبه لن يضيع، وأن الله سيرفعه درجات، هان عليه الصبر، قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١١].



الفصل السابع: التدرج في الدعوة والتعليم

التدرج في الدعوة والتعليم سنّة ربانية، وطريقة نبوية، وقاعدة لا ينجح الداعية ولا المعلّم إلا بالعمل بها، فالدعوة إلى الله لا تُؤخذ بالعجلة، ولا تُلقى دفعة واحدة، وإنما تُبنى القلوب على أساس متين، ثم يعلو البناء درجة درجة، حتى يستقيم ويشتد.

لقد بدأ الوحي أول ما بدأ بأعظم الأصول، وهو توحيد الله ﷻ، قبل أن تُفرض الفرائض وتُشرع الأحكام، فكان أول ما نزل من القرآن قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ [المدثر: ١-٣].

ليقرر في القلوب أن العبادة لله وحده، وأن أعظم ما يُدعى إليه الناس هو إخلاص الدين لوجهه.

ثم جاء التشريع متدرجًا في الأحكام، حتى إذا تمكن الإيمان في القلوب، فرض الله الصلاة والزكاة والصيام والحج، وجاء تحريم المحرمات على مراحل، كما في تحريم الخمر، حيث قال سبحانه أولًا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة:٢١٩]، ثم قال: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، ثم جاء التحريم القاطع: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة:٩٠].

وهذا عين ما فعله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه، فقد مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يعلّمهم العقيدة، ويغرس في قلوبهم التوحيد، قبل أن تنزل

الفرائض الكاملة والأحكام التفصيلية.

وفي حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن، قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ...» [رواه البخاري (٧٣٧٢) ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

فهذا الحديث أصل في فقه التدرج في الدعوة والتعليم، إذ لم يبدأه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بتعليمهم الفروع أو التفاصيل، بل بدأه بما تصح به عقيدتهم، ثم انتقل إلى الصلاة، ثم إلى الزكاة، وهكذا.

وهكذا كان السلف الصالح في تعليمهم، يبدؤون بالأهم فالمهم، فيرسخون الأصول قبل الفروع، ويحفظون على الطالب قلبه قبل عقله، حتى إذا اشتد عوده، أقبل على المعارف الكبار وهو قوي الأساس، متين البنيان، قد تربى على بصيرة، ودرج على منهج النبوة في التعليم.

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٥-١٦]، وهذا النور لا يدخل القلوب دفعة واحدة، بل يشرق فيها شيئًا فشيئًا، حتى يملأها.

فالتدرج إذًا ليس ضعفًا في البلاغ، ولا نقصًا في البيان، بل هو عين الحكمة، وتمام الرحمة، وسر النجاح في إيصال العلم والدعوة، وبه يتم البناء ويستقر، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[آل عمران:٧٩].

المبحث الأول: أهمية الدعوة أوساط العوام

العوام هم السواد الأعظم من الأمة، وبدون وصول الدعوة إليهم ينقطع نفعها عن أكبر شريحة من المجتمع، فيبقى العلم حبيس المجالس الخاصة، والدعوة حبيسة النخبة، وقد بعث الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رحمةً للعالمين، فلم يخص بالدعوة طائفة دون طائفة، بل قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

المنهج النبوي في دعوة العوام:

بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ دعوته بالأقربين والأميين وأهل الأسواق، يخاطبهم على قدر عقولهم، ويبسّط لهم المعاني، ويقرّبها بالأمثال والصور المألوفة لهم، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يختار الألفاظ الواضحة البعيدة عن التعقيد، ويعيد الكلمة ثلاث مرات لتُعقل وتُحفظ.

ومن هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قوله: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» [رواه البخاري (٦٩) ومسلم: (١٧٣٤)].

منهج السلف في دعوة العوام:

كان السلف يعدّون تبليغ العلم للعوام رحمة وواجبًا، **قال عبد الله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله. [رواه البخاري (١٢٧)].

وكانوا يراعون في خطابهم حال السامعين، فيبدؤون بالأصول قبل الفروع، ويضربون الأمثلة من حياتهم، ويصبرون على أسئلتهم وتكرارهم.

نماذج نبوية في دعوة العوام:

قصة الأعرابي الذي بال في المسجد:

روى البخاري، برقم: (٦١٢٨)، ومسلم، برقم: (٢٨٤) أن أعرابيًا بال في المسجد، فقام الصحابة إليه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»، وهذا من أعظم صور الرفق مع العوام.

قصة ضِمام بن ثعلبة:

جاء يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عن التوحيد وأركان الإسلام بعبارات صريحة، فأجابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بأيسر جواب، حتى قال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ». [رواه البخاري (٤٦) ومسلم (١١)].

ضوابط دعوة العوام:

- التبسيط في العبارة، وتجنب المصطلحات المعقدة.
- التدرج من الأصول الكبرى (التوحيد، أركان الإسلام) قبل الفروع الدقيقة.
- استعمال الأمثلة الواقعية من حياتهم لتقريب المعاني.

- الصبر على أسئلتهم، وعدم التضجر من بطء الفهم.
- تكرار المعلومة بأسلوب متجدد حتى تُفهم.

ثمار دعوة العوام:

- انتشار العلم بين عامة المسلمين.
- حفظ بيضة الإسلام من الجهل والانحراف.
- بناء قاعدة شعبية واعية، تحمي الدين وتنشره.
- نيل أجر البلاغ المبين، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» [رواه البخاري (٣٤٦١)].

المبحث الثاني: البدء بالأهم فالمهم

إن قاعدة (البدء بالأهم فالمهم) ليست مجرّد مسألة إدارية أو ترتيب عقلي للمهام، بل هي أصل من أصول الشريعة، وقاعدة راسخة في منهج النبوة، بها ينتظم سير المسلم في حياته، وبها يثمر الجهد، ويختصر الطريق، فمن لم يعرف الأولويات ضاع عمره في فضول العمل، ومن شغل وقته بالمفضول عن الفاضل خسر الخير الكثير.

لقد بدأ القرآن دعوته بترسيخ أعظم الأصول، وهو توحيد الله ﷻ، قبل أن يأمر بالصلاة والزكاة وسائر الشرائع، فقال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

وجاء جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يسأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ عن الإسلام والإيمان

والإحسان، فجعل الأسئلة مرتبة من الأهم إلى المهم، تعليمًا للأمة أن العلم والعبادة يُبدآن بالأساس قبل البناء، وبالأصل قبل الفرع.

وفي حديث معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لما بعثه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ إلى اليمن، قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ» [رواه البخاري (٧٣٧٢) ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا].

هذا الترتيب النبوي هو الذي سار عليه الصحابة والتابعون في تعليمهم، فكانوا يبدؤون بالاعتقاد الصحيح، ثم العبادة، ثم ما بعدها من المعاملات والآداب.

قال عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة فنتعلم حلالها وحرامها وأمرها ونهيها. [رواه الطحاوي في أحكام القرآن (٤٨١) وهو أثر صحيح].

ومن ترك هذه القاعدة اختل مساره، فكم رأينا من يشتغل بدقائق المسائل قبل أن يتقن أصول الدين، أو يجادل في الفروع وهو ضعيف في الثوابت، فيخرج بعلم مشوّش وفهم ناقص.

إن العمل بهذه القاعدة في طلب العلم وفي الدعوة، وفي إصلاح النفس، يعني أن تبدأ بما هو أعظم أثرًا وأشد ضرورة، ثم بما دونه، حتى تؤدي ما أمرك الله به على أكمل وجه، ويصدق فيك قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد:١٧].

فليجعل طالب العلم والناصح للأمة هذه القاعدة ميزانًا لا يفارقه؛ فإنها مفتاح الرشد، وحافظة للوقت، وضامنة لسلامة المنهج، ومن فقدها عاش حياته في جمع القش وترك اللباب.



الفصل الثامن: الرحلة في طلب العلم

الرحلة في طلب العلم ليست مجرد انتقال من بلد إلى بلد، بل هي سفر القلب قبل سفر الجسد، وانتقال من الجهل إلى النور، ومن الغفلة إلى اليقظة، إنها تضحية بالراحة والأهل والمال، ابتغاء مرضاة الله، وطلبًا لميراث النبوة، فالعلم شريف، ولا يطرق بابه إلا من عرف قدره، ومن أراد بلوغ أعالي الجبال لا يقنع بالسير في السهول.

قالوا: من لم تكدحه الرحلة، وتبلُه الأسفار، وتطوه الليالي على قلة الزاد، فلن يذوق حلاوة العلم. ولذا كانت الرحلة شعار العلماء على مر العصور، لا يمنعهم بعد المسافة، ولا قلة النفقة، ولا خطر الطريق.

أدلة من الكتاب والسنة:

أولًا من القرآن:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢]

هذه الآية أصل في الرحلة للتفقه في الدين، ثم الرجوع لنفع الناس.

وقوله تعالى -في قصة موسى مع الخضر-: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف:٦٥]، إذ سافر موسى مسافات بعيدة ليتعلم منه.

ثانيًا من السنة:

حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنه رحل شهرًا إلى عبد الله بن أنيس ليسمع منه حديثًا واحدًا. [رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٨٦)، وصححه الألباني في تحقيقه على الأدب المفرد].

حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

فالرحلة في طلب العلم عبادة جليلة، وطاعة رفيعة، هي ميراث الأنبياء، وشعار العلماء، وطريق الصادقين إلى معالي الأمور، لم يكن العلماء الكبار نتاج الدعة والراحة، وإنما صاغتهم الأسفار، وبلتهم المشاق، وأثمرت فيهم الليالي الطوال على قلة الزاد وكثرة الأمل، ومن أراد بلوغ ذرى المعارف، فلا بد أن يقطع مفاوز الجهل، وأن يسلك طرق العلم، ولو بعدت المسافة واشتد التعب، فإن العلم لا يُؤخذ وهو يأتيك، بل تُرحل إليه الرحال، وتُقطع في سبيله الفيافي.

فالرحلة في طلب العلم سنة نبوية وسيرة سلفية، وقد وردت شواهدها في القرآن والسنة.

قال تعالى في قصة موسى مع الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٥]، حيث قطع موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مسافات طويلة ليتعلم.

وكان الصحابة يرحلون إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ليسمعوا الحديث،

ثم يعودون إلى أقوامهم يعلمونهم.

المبحث الأول: فوائد الرحلة في طلب العلم

الرحلة في طلب العلم كانت ولا تزال شعار العلماء ووسام المتحققين، وهي من دلائل صدق الطالب، وعلامات جِدّه، فقد رحل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الخضر يتعلّم منه، ورحل الصحابة بعضهم إلى بعض لسماع حديث واحد، ورحل الأئمة من أقصى الأرض إلى أقصاها، في سبيل جمع العلم وضبطه، وليس عجبًا أن تكون هذه الرحلة عبادة وقربة، لأنها وسيلة لتحصيل ما أوجب الله من العلم الشرعي، ونشره بين الناس.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

الفوائد:

١) ضبط الرواية عن الشيوخ مباشرة بأخذ العلم من أفواه العلماء، وحفظ الألفاظ كما نطقوا بها، بعيدًا عن التصحيف والتحريف، كما فعل جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ برحلته لعبد الله بن أنيس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٢) زيادة الخبرة والتجربة: فالسفر يربي على الصبر، ويعلّم الاعتماد على النفس، وحسن التصرف في المواقف الصعبة.

٣) التعرف على أعلام الأمة والاستفادة من أخلاقهم بالرحلة يلتقي الطالب

بالعلماء الكبار، فيتأثر بسمتهم، ويقتبس من هديهم العملي، كما **قال الإمام مالك:** كان الرجل يرحل لينظر إلى هدي الإمام.

٤) جمع طرق الحديث لتقوية الإسناد؛ لتحصيل الروايات المتعددة، وتقوية السند، وكشف العلل، كما قرره الخطيب البغدادي.

٥) رفع الجهل عن النفس وعن الأمة بالتفقه في الدين، ثم الرجوع لتعليم الناس، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢].

٦) الإسناد العالي بملاقاة كبار الشيوخ، وقلة الوسائط بين الطالب والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ.

٧) توسيع المدارك والثقافة بمعرفة أحوال المسلمين في الأمصار، وجمع الفقه بالواقع مع الفقه بالنصوص.

٨) التفرغ للعلم والابتعاد عن الشواغل، إذ يقطع السفر الطالب عن مشاغل الحياة اليومية، فينصرف بكليته إلى التحصيل.

٩) الاقتداء بالسلف الصالح؛ إحياء لسنتهم العملية في طلب العلم، كما فعل الصحابة والتابعون.

١٠) تقوية الصلة بالله تعالى بالتوكل عليه في الغربة، وتحمل المشقة في سبيل مرضاته.

الخلاصة: إن الرحلة في طلب العلم ليست ترفًا، بل هي ركن في تكوين العالم،

وسبب في رسوخ قدمه، وبركة علمه، فمن أراد أن يكتب الله له القبول في الأرض، وأن يورثه ميراث الأنبياء، فليقتفِ أثر أولئك القوم الذين ملأت أسماؤهم الدنيا، وخلّد التاريخ ذكرهم، وما ذاك إلا لأنهم عرفوا أن العلم عزيز لا يُنال إلا برحلة وصبر وتضحية.

المبحث الثاني: ضوابط الرحلة في طلب العلم

الرحلة في طلب العلم عبادة جليلة وشعيرة موروثة عن الأنبياء والصحابة والتابعين، وهي دليل على صدق الطالب وعزيمته، غير أن هذه العبادة تحتاج إلى ضوابط شرعية وأدبية، تحفظ مقصدها، وتحقق ثمرتها، وتقيها من الانحراف أو ضياع الوقت، وفيما يلي أبرز هذه الضوابط كما قررها أهل العلم، وهي كما يلي:

١- أن تكون النية لله تعالى.

٢- على الطالب أن يقصد برحلته وجه الله، ورفع الجهل عن نفسه وعن الأمة، لا السمعة ولا الرياء:

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود].

٣- اختيار الشيوخ المعروفين بالعلم والديانة.

٤- لا يأخذ العلم إلا عن أهل السنة المعروفين بالثقة والورع:

قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

[رواه مسلم في المقدمة (١/ ١٤)].

٥- التثبت في الرواية:

يجب ضبط اللفظ والتأكد من صحة النقل قبل نشره، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ» [رواه الترمذي (٢٦٥٦) وصححه الألباني].

٦- الاستفادة القصوى من وقت الرحلة:

على الطالب أن يغتنم الرحلة في حضور الدروس، والمذاكرة، ولقاء العلماء، واجتناب الملهيات، وكان الإمام أحمد لا يضيع لحظة في سفره إلا في فائدة.

٧- الاقتصاد في النفقة:

لينفق باعتدال، فيكفي نفسه مؤونة السؤال، ويبتعد عن الإسراف، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا، وَالْبَسُوا ، مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ وَلَا مَخِيلَةٌ» [رواه النسائي (٢٥٥٩) وصححه الألباني].

٨- الصبر على المشقة:

لا بد من الصبر على تعب الطريق وغربة الديار، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧] .

٩- عدم الإقامة إلا بقدر الحاجة:

لا يطيل المقام في بلد إلا ما تقتضيه الفائدة، حتى لا تضيع الأعمار في التنقل بلا

ثمرة، وهذا من فقه الأئمة.

١٠- الحرص على العودة بالنفع للأمة:

يعود الطالب بعد الرحلة مبلغًا ما تعلمه، محققًا لقول الله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة:١٢٢].

الخلاصة: هذه الضوابط هي زاد المسافر في طريق العلم، تحميه من الانحراف، وتعينه على إخلاص القصد، وحسن التحصيل، ونفع الأمة، فمن ضبط رحلته بهذه القواعد كان على هدي السلف الصالح، وسار في طريق العلماء العاملين، وجعل الله في علمه البركة والقبول.



الفصل التاسع: آفات في طريق طلب العلم

الآفة الأولى: الكبر والعجب:

الكبر والعجب من أخطر ما يفسد قلب طالب العلم، وهما سبب للحرمان من الانتفاع بما تعلم، إذ يجعلانه يحتقر الناس ويرى نفسه فوقهم، ويعميانه عن قبول الحق ممن جاء به.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]، فالمتكبر يحرم من هداية الله، وصرفه عن الآيات أعظم خسارة للعبد.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ [لقمان:١٨].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» [رواه مسلم (٩١)].

وفي حديث آخر قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» [رواه مسلم (٩١)]، أي ردّ الحق واحتقار الناس.

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم ما نفع، ليس العلم ما حفظ. [أدب الشافعي، ١٤٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق (١/ ٢٥٦)-: فإن آفة العلم الكِبْر، وآفة العبادة الرياء.

وقد كان السلف يعدّون التواضع للحق وللخلق شرطًا في صلاح العالم،

ويقولون: من ازداد علمًا فازداد كبرا، فما ازداد من الله إلا بعدا.

الآفة الثانية: الجدل بغير حق:

الجدل بغير حق من أعظم الآفات التي تفسد طالب العلم، فهو يشغل عن العمل، ويورث القسوة والخصومة، ويزرع في القلب حب الانتصار للنفس لا للحق، وصاحبه لا يطلب وجه الله، بل يسعى لإسقاط خصمه أو إظهار نفسه، فتنطمس بصيرته، ويحرمه الله بركة العلم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [الحج:٨]، فهذا ذمّ صريح للجدال القائم على الجهل، وبيان لخطورته على القلب والعقل.

وقال سبحانه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر:٤]، فمن أكثر الجدل بالباطل كان شبيهًا بأهل الكفر في صدهم عن الحق.

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ». [رواه الترمذي (٣٢٥٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٢٥٣)].

وفي حديث آخر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» [رواه أبو داود (٤٨٠٠) وصححه الألباني].

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغائن.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: ما ناظرت أحدًا إلا تمنيت أن يظهر الله الحق على لسانه.

فالجدل المشروع هو الذي يقصد به بيان الحق، ورده إلى نصوص الشرع بالحكمة والموعظة الحسنة، أما الجدل المذموم فهو المماراة والخصومة لإظهار الغلبة، وهذا مما يميت القلب ويضيع الوقت ويزرع الكبر في النفس.

أسباب الجدل المذموم:

١) حب الظهور والتعالي على الناس:

كثير من الجدل سببه الرغبة في الانتصار للنفس، وطلب الشهرة، والعلو على الخصوم، وهذا ينافي الإخلاص لله.

٢) الجهل وقلة الفقه في الدين:

من جادل بغير علم أفسد أكثر مما أصلح، كما قال تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ [الأنفال:٦].

٣) اتباع الهوى:

قال الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ ﴾ [القصص:٥٠]

التجرد من الهوى شرط عظيم في طلب العلم، بل هو أساس الانتفاع به، فإن العلم نور، والهوى ظلمة، ولا يجتمع النور والظلمة في قلب واحد، فإذا غلب الهوى، حال بين العبد وبين قبول الحق، ولو كان أوضح من الشمس، قال الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾ [القصص:٥٠].

ولهذا كان السلف يعدّون الهوى أعظم آفة تصيب طالب العلم، لأنه يحرفه عن الجادة، ويجعله يطلب العلم ليوافق رغباته لا ليعبد ربه.

٤) **الفراغ وعدم الانشغال بما ينفع:**

فمن لم يشغل وقته بالعلم النافع والعمل الصالح، استدرجه الشيطان إلى الجدال العقيم.

علاج الجدل المذموم:

١) **إخلاص النية لله:**

أن يكون الهدف من النقاش إظهار الحق لا إظهار النفس، **قال الشافعي**: ما ناظرت أحدًا إلا على النصيحة.

٢) **الرجوع إلى الدليل والبرهان:**

ربط الحوار بالكتاب والسنة وأقوال السلف، وترك الآراء المجردة.

٣) **الاقتصار على الحاجة:**

عدم الإطالة في النقاش إلا بقدر ما يظهر الحق ويدفع الشبهة.

٤) **التأدب بأدب الحوار:**

كخفض الصوت، وعدم السخرية أو الشماتة، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥].

٥) **ترك المراء عند ظهور الحق:**

فمن ظهرت له الحجة، فالواجب عليه التسليم والانقياد، لا المكابرة والجدال.

الخلاصة: إن الجدل بغير حق وبالأسلوب المذموم من أخطر ما يبتلى به طالب العلم، فهو سلاح ذو حدين، إن وُضع في نصرة الحق كان بركة، وإن استعمل في الباطل كان نقمة، فليحذر طالب العلم أن يتحول من طالب هدى إلى خصم للحق، فيُحرم بركة العلم، وتزول هيبته من القلوب، ويصبح ممن قال الله فيهم: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر:٥].

آداب الخلاف العلمي:

الخلاف في بعض المسائل أمر قدري لا يسلم منه أحد، إذ تختلف مدارك الناس وفهومهم، وتتفاوت مراتبهم في العلم والفقه، وقد وقع الخلاف بين الصحابة رضوان الله عليهم، وهم خير القرون وأعلم الأمة، لكنه كان خلافًا منضبطًا بأدب العلم، بعيدًا عن التعصب والخصومة، محكومًا بالرجوع إلى الكتاب والسنة.

فالخلاف إذا جرى في إطار الأدب كان رحمة وسعة، أما إذا خرج عن حدوده، صار فتنة وفرقة، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٥٩].

الآفة الثالثة: الغرور بكثرة المحفوظ:

ليس العلم بكثرة ما يردده اللسان من نصوص وأقوال، ولا بكثرة ما تسطره اليد من مسائل وفوائد، إنما العلم نور يقذفه الله في القلب، فيثمر خشية وخضوعًا،

وتواضعًا للحق، وعملًا صالحًا يصدّق القول بالفعل.

كثير من الناس يغترّ بكثرة ما يحفظ، فيظن أن ذلك وحده بلغ به منزلة العلماء، وينسى أن الحفظ إذا خلا من الفهم فهو كالماء في وعاء مثقوب، لا يلبث أن يضيع، وإن خلا من العمل كان حجة على صاحبه يوم القيامة، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن الرجل الذي يجر أمعاءه في النار «كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» [البخاري (٣٢٦٧)، مسلم (٢٩٨٩)].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنكم في زمان كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه. [الزهد لابن المبارك (١٣٥)].

وقد قيل: العلم علمان: علم باللسان، فذاك حجة الله على ابن آدم، وعلم بالقلب، فذاك العلم النافع.

وقيل: العلم ما جاء عن الله، والعمل به، ليس هو بكثرة الرواية.

أما **ابن القيم** فشبّه العلم بلا عمل بالشجرة التي لا تثمر، أو السحابة التي لا تمطر، **وقال:** العلم شجرة والعمل ثمرتها، فمن اكتفى بالعلم دون العمل كان كمن يزرع ولا يحصد.

فالواجب على طالب العلم أن يجعل المحفوظ سلّمًا للفهم، والفهم طريقًا للعمل، والعمل سبيلًا إلى النجاة، وأن يتذكر دائمًا أن العلم الذي لا يورث خشية، ولا يبعث على التقوى، قد يكون سببًا في هلاكه، كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة:٥].

الآفة الرابعة: الحسد بين طلاب العلم:

الحسد آفة عظيمة، ومرض قلبي خطير، وهو تمني زوال النعمة عن الغير، وقد يكون أشد ما يكون بين أهل الفضل، لأن الشيطان يحرص على إفساد القلوب المتوجهة إلى الله، فإذا لم يظفر منهم بالمعاصي الظاهرة دسّ في قلوبهم الحسد والغلّ، حتى يفرّق صفهم ويطفئ نورهم.

قال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النساء:٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

وعن الزبير بن العوام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ». [رواه الترمذي (٢٥١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» [رواه أبو داود (٤٩٠٣) وصححه الألباني].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما خلا جسد من حسد، لكن الكريم يخفيه، واللئيم يبديه.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، نفس دائم، وحزن لازم.

فالحسد بين طلاب العلم يقتل روح الأخوة، ويمنع بركة العلم، ويجعل صاحبه يتمنى زوال الخير عن إخوانه، بدل أن يشكر الله ويطلب الزيادة من فضله.

والواجب على طالب العلم أن يطهّر قلبه من هذه الآفة، وأن يعلم أن فضل الله واسع، وأن رفعة أخيه في العلم أو القبول نعمة على الأمة كلها، لا خصمًا له.

أسباب الحسد بين طلاب العلم:

١) حب الرياسة، وطلب الشهرة:

قد يفرح طالب العلم أن يكون هو المرجع دون غيره، فإذا ظهر غيره وذاع صيته، وجد في نفسه حرجًا، بدل أن يفرح بانتشار الحق.

٢) ضيق الصدر، وقلة الإخلاص:

الإخلاص لله يوسع القلب، والحسد لا يسكن إلا قلبًا خلا من النية الصافية، وانشغل بنظر الناس أكثر من نظر الله إليه.

٣) المنافسة الدنيوية في مجال شريف:

وقد **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرياء في أبواب الخير أخفى من دبيب النمل.

وسائل علاج الحسد:

١ - تقوى الله ومراقبته:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]، فمن استحضر نظر الله إليه، استحيا أن يكره نعمة أنعمها الله على عبد من عباده.

٢- الدعاء للمحسود بالبركة:

كما جاء في الحديث: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ**»

[رواه ابن ماجة (٣٥٠٩) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي].

٣- معرفة أن النعمة موزعة بحكمة:

قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢]، فالعلم والقبول من رزق الله، يقسمه كما يشاء.

٤- الانشغال بالنفس عن الغير:

كما **قال الفضيل بن عياض** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما من أحد أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه.

٥- تذكر أن فضل أخيك فضل لك:

فالعالم أو الطالب إذا نفع الناس عاد نفعه عليك وعلى أمتك، فكيف تكره ذلك؟

الخلاصة: الحسد نار تشتعل أول ما تشتعل في قلب صاحبها، فتحرقه قبل أن تبلغ غيره، ودواؤها الرضا بقدر الله، والنظر إلى نعم الله عليك، والتسابق في الخيرات بدل التسابق في إطفاء نور إخوانك، ومن طهّر قلبه من الحسد، أشرق علمه، وبارك الله في عمره، وجعل له القبول في الأرض.

علاج آفات طلب العلم:

١- محاسبة النفس ومراقبتها:

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا.

فمن راقب قلبه في مسيره العلمي، عرف مواضع الخلل قبل أن تستفحل.

٢- ملازمة العلماء المخلصين:

فالصحبة الصالحة تحفظ القلب من الانحراف، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» [رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨)، وصححه الألباني].

٣- تذكر هول الموقف يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٤]، ومن علم أن علمه سيُسأل عنه، هان عليه التواضع والعمل، وزال عنه الكبر والعجب.

٤- الإكثار من الدعاء بسلامة القلب:

فالنفس ضعيفة والفتن خطافة، وأعظم ما يحفظ العبد قوله تعالى على لسان عباده: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].



الفصل العاشر: قول "لا أدري" من تمام العلم

قول "لا أدري" خلق عظيم من أخلاق العلماء، وعلامة على رسوخ العلم في القلب، إذ ليس من العلم أن يتكلم المرء في كل شيء، بل العلم أن يتقي الله في قوله وفتواه، وقد جرى على هذا السلف الصالح، فلم يستنكفوا من ردّ السؤال إذا لم يعلموا جوابه، ورأوا أن ذلك حفظ للعلم والدين، وصيانة للسان من القول على الله بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣].

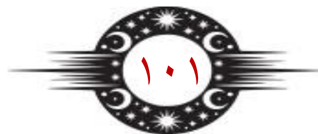
فجعل القول على الله بغير علم في آخر مراتب المحرمات، وهو أشدها خطرًا.

ومن هدي السلف أن يربّوا طلابهم على هذه الخصلة، حتى يكون الطالب صادقًا مع نفسه ومع الناس، فلا يجيب إلا بعلم، ولا يخوض إلا ببصيرة.

المبحث الأول: مكانة قول "لا أدري"

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: من أفتى الناس في كل ما يسألونه فهو مجنون. [جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٢٤)].

وقال الشعبي رَحِمَهُٱللَّهُ: لا أدري نصف العلم. [أعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٧) ط عطاءات العلم].



وكان مالك بن أنس يُسأل عن أربعين مسألة، فيجيب في أكثرها: لا أدري.

وهذا يدل أن "لا أدري" باب من أبواب الفتيا، لا ينقص من مكانة العالم، بل يزيده رفعة وهيبة.

المبحث الثاني: فوائد قول "لا أدري"

- السلامة من القول على الله بغير علم.
- تربية الناس على التورع والتثبت.
- حفظ هيبة العلم، فلا يُجعل مجالًا للتجربة والظنون.
- تعويد طالب العلم على التواضع، وعدم ادعاء الإحاطة.

المبحث الثالث: ضوابط عملية

- إذا لم يتبين الجواب، فالواجب التوقف حتى يظهر الدليل.
- لا يجوز للعالم أن يستحيي من قول: "لا أعلم"، فإن الاستحياء في موضعه خير، وفي غير موضعه شر.
- من لم يتعود قول: "لا أدري" وقع في الفتيا بغير حق، فأفسد وأضر.

في الختام نحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد هذا البيان في فضل طلب العلم وآدابه ووسائله، والتحذير من آفاته، يتضح أن العلم الشرعي هو حياة القلوب ونور البصائر، وسبب عز الأمة وفلاحها في الدنيا والآخرة.

وقد مضت سيرة الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان من العلماء الربانيين،

على هذا الطريق المبارك، فرفع الله بهم راية الحق، وحفظ بهم الدين، وأقام بهم الحجة على العالمين.

فينبغي لطالب العلم أن يصحح نيته، ويجعل طلبه عبادة يتقرب بها إلى الله، ويجتهد في العمل بما علم، ويتدرج في الطلب، ويصبر على المشاق، ويرحل في سبيله، ويتحلّى بآدابه، ويحذر من آفاته حتى يكون من الذين قال الله فيهم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

ونسأله سبحانه أن يجعل ما كتبناه خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لكاتبه وقارئه، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، والثبات على طريق الحق حتى نلقاه وهو راضٍ عنا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفهرس:



صدر حديثًا للمؤلف

